تقديمُ

فضيلة الشيخ عزّ الدين رمضاني «حفظه الله تعالى»

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام علىٰ من لا نبيَّ بعده، أما بعد:

فلقد أطلعني الأخ الفاضل والباحث المجدّ الشيخ أبو محمد سمير سمراد - وفقه الله - علىٰ مشروعه الكبير «**صفحات من تاريخ الإصلاح السَّلفيِّ في الجزائر**» المتمثِّل في جزئه الأول، ورغب إليَّ أن أقرِّظ له، فامتنعت ابتداءً لعلمي أنَّ هناك من هو أولىٰ منِّي بهذا التَّكليف والتَّشريف، واكتفيت وقتئذٍ بأن أبديت له بعض الملاحظات اليسيرة؛ لينظر فيها، ويعيد صياغة بعض الألفاظ وتهذيب بعض الجمل والفقرات؛ ليكتمل البحث صياغةً ومنهجيةً.

ولَمَّا أصرَّ «حفظه الله» - وهذا من حسن ظنِّهِ بأخيه - علىٰ ما عزم عليه، أجبته إلىٰ تحرير سطور هي بمثابة التَّقديم للكتاب لا التَّقريظ، فكان لزامًا عليَّ أن أعيد قراءة الكتاب من أوَّله إلىٰ آخره قراءةً متأنِّيةً مركَّزةً، فكان لي ذلك بتوفيقٍ من الله، وجال نظري في فقرات البحث كلِّهِ من شرح وتعليقٍ وفوائد وتخريجات هي من جهد الباحث واستنتاجه، واقفًا علىٰ تلك النُّقول العطرة التي ضمَّنها بحثهُ، وقد أحسن في الإكثار منها، والَّتي جادت بها قرائح ذلك الجيل الفريد، جيل جمعيَّة العلماء المسلمين «السَّلفيِّين» الجزائريين، متأمِّلًا في تلك الحجج الدَّامغة والأحكام الصَّائبة الَّتي صيغت بأسلوبٍ علميٍّ شرعيٍّ متين، ولسانٍ أدبيٍّ مفصِح مبين، كشف الكثير من الحقائق التي كانت مجهولةً آنذاك عند الخواصِّ والعوامِّ، وأماطت اللِّثام عن تلك البدع الطَّوامِّ التي أفسدت علىٰ النَّاس دينهم وعقيدتهم وعبادتهم وأخلاقهم، فما كان من جنود الجمعيَّة المغاوير إلَّا التَّصدِّي لذلك العدوان بقلم

ولسان وبيان ودعوة ليس فيها مراوغة ولا مداهنة ولا مسايرة لهوىٰ أحد ولا موازنة، لم تأخذهم في سبيل الصَّدع بالحقِّ لومة لائم، ولم تفزعهم في كشف فضائح الباطل سطوة حاسدٍ أو ناقم، ليعلنوا بلسان صارم لا عيب فيه، وقلم جريءٍ لا عبث فيه: أن «لا صوفيَّة في الإسلام»، وأنَّ «الأوضاع الطُّرقيَّة ورسومها بدع من الدِّين»، وأنَّ بلاد المغرب بريئةٌ منها، غريبةٌ عنها، لم تولد من رحمها، ولم ترضع من لبنها، بل لم يظهر التَّصوُّف ولم يقم للمتصوِّفة شأنٌ إلَّا زمن الرافضة العبيديِّين، وكان علماء الجزائر وقتئذٍ قد أنكروا علىٰ بني عبيد هذا الوافد الغريب علىٰ دين الأمَّة، وكم من وافدٍ يجب أن يحتمىٰ منه وأن تُقَلَّمَ أظافيره وإن كسرت قواريره، يقول العلَّامة الشيخ مبارك الميلي في كتابه «**تاريخ الجزائر**»«٢/ ٣٤٢»: «وقد عرفت الجزائر التَّصوُّف زمن بني عبيد، لكنَّ العلماء أنكروا عليهم وكفَّروهم، حتَّىٰ قال محمَّد بن عمَّار الكلاعي الميروقي يوصي ابنه من قصيدة:

وطاعة من إليه الأمر فالزم ... وإن جاروا وكانوا مسلمينا

فإن كفروا ككفر بني عبيد ... فلا تسكن ديار الكافرينا

فلم يكن يومئذٍ بالمغرب شأن للصُّوفيَّة إلىٰ أن جاءت الدولة المؤمنية ونشرت المعارف ونصرت الفلسفة...»، إلىٰ أن قال - مبيِّنًا الأثر السَّيِّئ للصُّوفيَّة ووبالهم علىٰ العباد والبلاد -: «وعلت كلمة الصُّوفيَّة، فمثَّلوا أدوارهم مع العامَّة، وكان ذلك مبتدأ انحطاط الجزائر والمغرب دينيًّا وسياسيًّا» اهـ.

ولسائلٍ أن يتساءل - جادًّا أو هازلًا - إذا لم يكن أهل المغرب في تلك الحقبة صوفيِّين ولا عرفوا هذه الطُّرق البدعيَّة فعلىٰ أيِّ مذهبٍ أو ملَّة كانوا؟ فالذي يجيب هو مؤرِّخ الجزائر بلا منازع الشَّيخ مبارك الميلي في كتابه «**تاريخ الجزائر في القديم**

والحديث» والذي قال عنه العلَّامة ابن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لو سمَّيته «حياة الجزائر» لكان بذلك خليقًا» ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلَّا أهلُ الفضل.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكان أهل المغرب **سلفيِّين**، حتَّىٰ رحل ابن تومرت إلىٰ المشرق، وعزم علىٰ إحداث انقلابٍ بالمغرب سياسيٍّ علميٍّ دينيٍّ، فأخذ بطريقة الأشعريِّ ونصرها، وسمَّىٰ المرابطين السَّلفيِّين «مجسِّمين»، ثمَّ انقلابه علىٰ يد عبد المؤمن، فتمَّ انتصار الأشاعرة بالمغرب، واحتجبت السَّلفيَّة بسقوط دولة صنهاجة، فلم ينصرها بعدهم إلَّا أفرادٌ قليلون من أهل العلم في أزمنةٍ مختلفةٍ، ولشيخ قسنطينة في القرن الثَّاني عشر عبد القادر الرَّاشدي أبيات في الانتصار للسَّلفيِّين طالعها:

خبِّرا عنِّي المؤوِّل أنِّي ... كافر بالَّذي قضته العقول»

[«**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**»«٢/ ٣٣٨»].

فهذا الَّذي ذكرته من نقولٍ - معزِّزًا لا مستدركًا علىٰ أخي ما جمعه وانتقاه - إنَّما هو غيضٌ من فيض كلام المصلحين السَّلفيِّين البيِّن الواضح في الإفصاح عن هويَّتهم وطريقتهم ومنهجهم، وإلىٰ من ينتمون وإلىٰ ماذا يدعون، الجليِّ الكاشف عن مواقفهم وتعاملهم مع خصومهم من المبتدعة والطُّرقيِّين، ولم يراوغ أحدٌ منهم - خاصةً أولئك الذين نقل المؤلِّف كلامهم - بأن سمَّىٰ الأشياء بغير مسمَّياتها، أو عرَّىٰ الأمور عن حقائقها، ولا دلَّس علىٰ من سأله مجيبًا إيَّاه بألفاظٍ موهمةٍ لا يفصح فيها ولا يبين، ولا قال إذا دعي ليحكم بين الفريقين: أنا مع الجميع وصديق الجميع. فإنَّ الشيخ أبا يعلىٰ الزَّواوي لَمَّا سأله «العليويُّون» أصحاب جريدة «**البلاغ**» في تعليق علىٰ مقاله في ذات الجريدة «**الحجُّ بالمال الحرام و... الشيخ خليل**» قائلين له: «نلتمس من الأستاذ الكاتب أن يبيِّن لنا ما هي صفات السَّلفيِّين

الإصلاحيِّين... حتَّىٰ نعرفهم بسيماهم»، أجابهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ دون تردُّدٍ أو وجلٍ في مقالٍ له في «**البلاغ**» نفسه، عدد «٧٧» تحت عنوان: «**السَّلف والخلف في الأمم**»: «فالجواب أنَّ هذا العبد الزَّواوي سلفيٌّ، والشيخ الطَّيِّب العقبي سلفي، والشيخ عبد الحميد بن باديس سلفي، والشيخ مبارك الميلي سلفي، ولم يثبت لي ظاهرًا في هذه الساعة غير هؤلاء، والمعنىٰ أنَّا ندعو إلىٰ هذا المذهب السَّلفي الجامع لنا، الَّذي به النَّجاة، والَّذي يصدق عليه الحديث في الفرقة النَّاجية التي هي علىٰ ما عليه محمد ﷺ وأصحابه، ومع ذلك فلسنا معصومين» اهـ.

أفبعد هذه الرُّؤية الواضحة لمنهج القوم، وبعد هذا الإصرار علىٰ المواقف الَّتي نادوا بها أوَّل مرَّة، وأعادوها في كلِّ كرَّة تكون لهم فيها مع الخصوم مساجلات ومناظرات، ومن ثمَّ إفحامات وإلزامات، وهي كثيرة في «الشهاب» و«البصائر» و«الإصلاح» و«السنَّة» و«الصراط» وغيرها من الجرائد والمجلَّات - يأتي اليوم من يدعو إلىٰ مزجٍ غريبٍ تأباه عناصر التَّركيب، ويترنَّم بلغةٍ فيها تطريب و«ترطيب»، ولا ندري أفي وُدِّ الخصوم يرغبون، أم من عدائهم لهم يرهبون، وهم يعلمون أكثر من غيرهم - وبعضهم سليل ذاك الجيل - أنَّ التَّقريب بين الطَّريقتين ضربٌ من الخيال، بعيد التَّحقيق والمنال، وهو كالتَّقريب بين السنَّة والشيعة تمامًا.

فلا دعوة إذن إلىٰ «تسليف» الصوفيَّة أو «تصويف» السَّلفيَّة كما زعم بعضهم، ولا فائدة من تغيير أسلوب الخطاب مع قومٍ كانوا ولا يزالون يحافظون علىٰ أوضاعهم الطُّرقيَّة وينصرونها، ويعادون من خالفهم أو انتقدهم، فهم اليوم - كما كانوا أمس - معروفون بنطحاتهم كما هم معروفون بشطحاتهم.

فالذي نأمل ممَّن انتمىٰ إلىٰ المدرسة «الباديسيَّة» قديمًا، أو ادَّعىٰ الانتساب إليها

حديثًا أن يبقىٰ علىٰ ذلك العهد الذي مضت عليه أجيال الجمعيَّة، والسَّمت الذي اتَّصف به علماؤها ومصلحوها والمنتسبون إليها، فلا يحقُّ لهم أن يرثوا منهم سحر البيان، ويزهدوا في أنفع الميراث وأجلِّه، وهو عقيدتهم ومنهجهم وطريقة تعاملهم مع الموافق والمخالف، أو الصَّديق والعدوِّ، أو الطَّالب للحقِّ والدَّاعي إلىٰ الباطل.

كما يجب عليهم أن لا يكتموا عن طلَّاب الحقيقة ما عرف به علماء الجمعيَّة من صلابةٍ واستماتةٍ في مواجهة الباطل، ومقارعة البدع والضَّلالات بذلك الأسلوب الَّذي أجمعوا علىٰ جدِّيَّته ومصداقيَّته، وأنَّه الأمثل والأصوب في صدِّ عدوان المبطلين، ودحر حجج المبتدعين، وهذا لا يعني أن يغيِّبوا الحكمة في تعاملهم، ويلغوا اللِّين والملاطفة في الحوار، وإنَّما لكلِّ مقام مقال.

وعودًا علىٰ بدءٍ فإنَّ ما قام به الأخ الباحث يكشف للمنصف نظرة علماء المسلمين الجزائريِّين إلىٰ التَّصوُّف والطُّرقيِّين ومن أقرَّ بأوضاعهم ورسومهم، وحكمَهم عليهم بالضَّلال ومجانبة الحقِّ.

وإنِّي أوصي أيَّ قارئٍ لهذا الكتاب بأن لا يستعجل الحكم عليه حتَّىٰ يفرغ من الاطِّلاع علىٰ مضامينه، ولا عليه بعد ذلك أن لا يوافق حتمًا ما وصل إليه الباحث من نتيجةٍ، فالله هو الهادي إلىٰ الحقِّ وإلىٰ الصِّراط المستقيم.

وكتب

أبو عبد الله عزُّ الدِّين رمضاني

رئيس تحرير مجلَّة «الإصلاح»

بتاريخ: ٢٦ ذو القعدة ١٤٣١هـ

الموافق لـ: ٣ نوفمبر ٢٠١٠.

المقدِّمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالىٰ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ثم أمّا بعدُ:

فهذه صفحاتٌ من تاريخ دعوةِ «**الإصلاح السَّلفيِّ**» في الجزائر، رأيتُ إعادةَ نشرِ ما طُوِي منها **تذكيرًا** بما تناساهُ الناسُ من معالمها، وما فقدوهُ من خالص نصحها، وسديد توجيهها، وكذلك **تحذيرًا** ممَّا عمل له أناسٌ - ولا يزالون يعملون! - لمحوِ طَيِّبِ آثارها، وتحريف صحيحِ كتابها، والتاريخُ الذي لا يمحىٰ شاهدٌ علىٰ قديمِ عداوتهم لها، ووقوفهم عائقا بين الناس وبينها، فهم لهذا يُحْيُونَ اليوم ما قد أماتته هذه الدعوة المباركةُ في الماضي القريب، ويُرَمِّمُونَ البنيان الذي حطمته فؤوس الإصلاح، فتداعىٰ للسقوط، بعد أن تهدَّمت أركانه، وخَرَّ عليهم السقفُ من فوقهم!، والحالُ الآن أن هؤلاء - والدولةُ لهم - لا يذكُرون هذه

الدعوة لا من قريب ولا من بعيد، ويتجاوزون أعمالها وهم يستعرضون صفحات الأيام الغابرة، وتاريخ الأمة المعاصر، ويكتمون آثارها، ولا يُعدِّدُون قليلًا ولا كثيرًا من «إصلاحها»، وطيّب «ثمارها»، فإنما هم اليوم مشغولون بإعادة مجدهم الذي زيَّفه المصلحون السلفيّون، واستردادِ عزِّهم ومكانتهم التي كانت لهم أيام غفلة الناس وجهالتهم، والتي زحزحهم عنها العلماء السَّلفيُّون، فعاد الناس يتبعون العلماء، ولا يتبعون شيوخ الطرق ورؤساء الزوايا، لا يُظَنُّ بهؤلاء أن يذكروا من نافسهم، وعَرَّىٰ حقيقتهم، وجَرَفَ بدعهم، واكتسح أضاليلهم، ونَوَّرَ العقول بالعلم؛ فكشف أباطيلهم، لا يُنتظر منهم أن يُنْصِفُوا أعداءَهُمُ القدامىٰ!

والإنصافُ يقتضي منَّا - نحنُ الآخِرين - أن نُعيدَ ذكرَ «مآثر» أولئك الأسلاف الصالحين، والعلماء الناصحين؛ لعلَّه يَحْدُثُ للناس بالوقوف عليها توبةٌ وإنابةٌ ورجوعٌ إلىٰ الحق الذي دَعَوا إليه، ويدعو إليه اليومَ كلُّ ناصحٍ مصلحٍ:

- وقد شرعتُ - أوَّلًا - في كتابة مقالةٍ بعنوان: «لا صوفية في الإسلام من حديث الإمام الإبراهيمي»؛ انطلقت فيها من فصلٍ عظيم النفع، محكم متين، للإمام الإبراهيمي «رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ»، فجزَّأْتُهُ فقراتٍ، مذيِّلًا كل فقرة منها بتوضيحات، ونصوصٍ وشواهدَ مؤكّدات.

- ثم شفعتها بمقالةٍ أخرىٰ كانت من قبلُ فكرة عندي مع سابقتها، وهي: «لا طرقية في الإسلام»، وقد سايرت فيها قلمي، وأطلقتُ له العنان، إلىٰ أن أخذ بغيتهُ، وأتىٰ علىٰ كل فكرةٍ في رأس حامله، ونسألُ الله تعالىٰ التوفيق والسَّداد!، وقد أكثرتُ فيها من النصوص والنُّقول، وأمعنتُ في حشْدِ الشواهد؛ حتىٰ لا يكون كلامي إنشائيًّا خاليًا منها، دعمًا لحجتي، وتقويةً لمزاعمي بأدلةٍ حسْبُها أن ترشد التائهَ والمحتار، وتُقنع الشاكَّ والمُرتاب، وتُصَحِّحَ المفاهيم والتَّصوُّرات.

- وفي الأخير: أُقَدِّمُ هذا العمل بدايةً، وهو:

«**مَوَاقِفُ المُصْلِحِينَ الجَزَائِرِيِّينَ مِنْ رُسُومِ المُتَصَوِّفِينَ وَأَوْضَاعِ الطُّرُقِيِّينَ**»، لتتلوهُ - إن شاء الله تعالىٰ - أعمالٌ أخرىٰ، ضمن السلسلة التي اخترتُ لها عنوان:

«صفحاتٌ من تاريخ الإصلاح «السَّلفيِّ» في الجزائر»

آتي فيها - بمعونة الله وتوفيقه - علىٰ «آثار السَّلَفِيِّينَ الْمُصْلِحِينَ»، في «جهادهم» المبرور تذكرةً للغافلين، وتثبيتًا للمؤمنين، هذا وأسألُ الله تعالىٰ أن أكونَ قد وُفِّقْتُ فيما قصدْتُ إليه: من «النُّصْحِ»، و«التَّذكير»، واللهُ من وراءِ القَصْد، وهو يهدي السبيل، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين.

كتبهُ:

أبو محمد سمير سمراد

في شهر جمادىٰ الأولىٰ ١٤٣١ هجرية.



لاَ صُوفِيَّةَ فِي الإِسْلاَم
مِنْ حَدِيثِ الإِمَامِ الإِبْرَاهِيمِي

بيضاء

لاَ صُوفِيَّةَ فِي الإِسْلاَم
مِنْ حَدِيثِ الإِمَامِ الإِبْرَاهِيمِي

هذا هو «**الشِّعَارُ**» الذي رفعه رجال وأعلام «**الإصلاح السلفي**» في الجزائر في الثلاثينيات والأربعينيات إحقاقًا للحق، وإبطالًا للباطل، قولًا صادقًا، ولهجةً صريحةً، لا تعرفُ الْتِوَاءً ولا مُدَاهَنَةً.

كانت هذه المصارحةُ ثقيلةً علىٰ النفوس التي ألفت الباطل، واعتادت من العلماء السكوتَ والإِغْضَاءَ، وعدم الإفصاح والبيان، بلْ منهم من زاد علىٰ ذلك الإقرار والتنويه والتمجيد!

فجاء المصلحون فسَلُّوا سيف الانتقاد علىٰ تلك البدع، وثاروا علىٰ تلك الأوضاع، وسمَّوْهَا باسمها، وجهروا بإنكارها والإنكار علىٰ أهلها، غَيْرَةً علىٰ الدين، ونصحًا للمسلمين، لا تأخذهم في الله لَوْمَةُ لائِمٍ، وعلىٰ رأْسِ أولئك الأعلام: **الإمامُ الإبراهيمي** - رفيقُ الإمام ابن باديس وخليفته من بعده «رحمهما الله»؛ فإنه كان أكثرَ صراحةً، لَمْ يُجَمْجِمْ، وَلَمْ يُتَمْتِمْ في قضيةٍ يجبُ فيها البيانُ التَّامُّ، وكان أشدَّ جراءةً في الحق، لم يتردَّدْ في أن يُسْمِعَ أولئك القومَ ما قد يُكْرِهُهُمْ سماعُهُ، فإنه لا سبيلَ للإصلاح إلَّا بِأَنْ يُجْتَثَّ المرضُ مِنْ أصله، ويُقْطَعَ الشرُّ مِنْ دَابِرِهِ، فأوضح رَحِمَهُ ٱللَّهُ كُلَّ لَبْسٍ، وجَلَّىٰ كلَّ غُمُوض قد غشي الحقيقة - **أعني: حقيقةَ مذهب «التصوف»** - ، فقد بيَّنَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا المذهب الذي ذهب إليه «**الصوفية**» ليس من دين الله، ولا يعرفه الإسلام، بل هو دخيلٌ عليه، من جملة ما دخل فيه من بدع ومحدثات، ونقطةٌ سوداء من نقطٍ سوَّدت وجه الأمة، وكدَّرت

صفاء «**البيضاء**»[(١)] «**النَّقيَّة**»[(٢)] التي تركنا عليها رسول الله ﷺ، وهو فتنةٌ علىٰ الأمة في دينها، عَرَفَتْهُ فيما عرفت من شقاق، وفيما مرَّ عليها من فتنٍ فرَّقت جماعتها، ومزَّقت وحدتها... أثبت الإمام الإبراهيمي هذه الحقيقة: من جهة الدين ومن جهة التاريخ.

❁ ❁ ❁

[بَدْءُ تَفَرُّق المسلمين في الدين]

يقول الإمام: «**أقام سلفُنا الصالح دينَ الله كما يجب أن يُقام، واستقاموا علىٰ طريقته أتمَّ استقامة، وكانوا يقفون عند نصوصه من الكتاب والسنَّة، لا يتعدَّونها، ولا يتناولونها بالتأويل**»[(٣)]، إلىٰ أن ظهرت الفتن، وحلَّ البلاء، وأطلّت البدع بقرونها، ونشأ في المجتمع الإسلامي جراثيم التفرق في الدين، وولج من ولج في [١] «**فتنةِ الرأي**»، وركب من ركب [٢] «**فتنةَ التأويل**».

وكان من دواعي هذا التفرق وأسبابه:

[٣] «**توسعُ الفتوحات**»؛ يقول الإمام: «**ثم توسعت الفتوحات، وبسط الإسلام ظلَّه علىٰ كثير من الممالك... ودانت له كثير من الأمم، وفي كلِّ أمة طوائف دخلت**

---

(١) من ألفاظ حديث العرباض بن سارية: «**لقد تركتم علىٰ مثل البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلَّا هالك**»، انظر: «ظلال الجنة في تخريج السنّة» للألباني (تحت الحديث رقم: ٣٣)، و(الحديث، رقم: ٤٧).

(٢) عن جابر أن عمر بن الخطاب أتىٰ النبيَّ ﷺ بكتاب أصابه من بعض الكتب قال: فغضب، وقال: «**أمتهوِّكُونَ فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقيَّة**». انظر: «ظلال الجنة في تخريج السنّة» للألباني (الحديث رقم: ٥٠)، و«إرواء الغليل» لهُ أيضًا (رقم: ١٥٨٩).

(٣) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٣).

في الإسلام وهي تحمل أوزارًا من بقايا ماضيها، وما كادت هذه المجموعات البشرية تمتزج، ويفعل الإسلام فيها فعله، حتىٰ ظهرت عليها أعراض التفرُّق»(١)، وكان هذا السبب هو الآخر من دواعي **ظهور** «**المذاهب الصوفية**»، وثَمَّتَ سببٌ رابعٌ [٤]؛ يقول الإمام: «**وكان لترجمة الفلسفة اليونانية والحكمة الفارسية والهندية أثرٌ قويٌّ في تعدُّدِ المذاهب الكلامية والصوفية... وهذا هو مبدأُ التفرق الحقيقي في الدين**»(٢).

وقد أوضح الشيخ مبارك الميلي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ «١٨٩٨م - ١٩٤٥م»(٣) أنَّ «التصوف» يوناني الأصل، وأنّ هذا اللقب: «لا أصل له في العربية، وهو الحق، فإنّ التصوف معرب تيو صوفية (THEOSOPHIE)، وهو لفظ يوناني مركب من تيو بمعنىٰ الإله وصوفية بمعنىٰ الحكمة، وهي طريقة رياضية لمعرفة الله(٤)، يزعم أهلها مناجاته ووحيه إليهم ونيلهم منه عرفانًا ومننًا خاصة، وأنه يتجلىٰ لهم في الكون أو الطبيعة حتىٰ يمتزجوا به ومذهبهم وحدة الوجود، ولمريديهم درجات في السلوك إلىٰ هذه الغاية. هذا هو التصوف الذي عرفه اليونان والهنود قديمًا، ثم استقت منه المسيحية حتىٰ إذا انتشرت بأوربا غطته فتنوسي بها إلىٰ أن أحياه بالتآليف العديدة سبينوزا بروخ اليهودي المتوفىٰ بمدينة لاهاي سنة: ١٠٨٨ «١٦٧٧م» فصار

---

(١) المصدر نفسه (١/ ١٦٤).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٦٤).

(٣) **انظر ترجمته في**: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ٢٤ - ٢٦) للحسن فضلاء، و«نبذة مختصرة عن العلَّامة الشيخ مبارك الميلي»، أعدَّها: محمود أبو عبد الرحمن.

(٤) **قال الشيخ مبارك الميلي في**: (عود إلىٰ الحديث عن التصوف «١»): (التصوف معرب تيوصوفية اليونانية... وإن معناه عندهم «طريقة رياضية لمعرفة الله»...) اهـ، «الشهاب»، المجلد (٨)، جزء شعبان (١٣٥١هـ)، (ص: ٦٥٣).

التصوف معروفًا اليوم بأوربا[١]»، وقال: «**ودخلت لفظة التصوف اليونانية إلىٰ العربية لما ترجمت كتب اليونان والهند في الدور العباسي لا سيما أيام المأمون**»[٢]، ونقل عن الشيخ محمد رشيد رضا قوله: «والكلمة يونانية، معناها الحكمة، والصوفية الحقيقيون كلهم طلاب حكمة، وهم من صنف الفلاسفة الإشراقيين عند اليونان، وذلك أنه لما دخلت الفلسفة اليونانية البلاد الإسلامية أخذ كل أناس منها ما يناسب استعدادهم فعُني بعض الناس بالعلوم النظرية، وبعضهم بالعلوم العملية مع العمل، وذلك قسمان: ما يتعلق بالظاهر كالطب، **وما يتعلق بالباطن كرياضة النفس وتهذيب الأخلاق، وهذا هو موضوع التصوف**. ويعرف أهل التاريخ أن هذا التصوف قديم العهد في البشر، فهو **معروف عند براهمة الهند إلىٰ اليوم، وعند أهل الصين أيضًا**، ومن الصينيين طائفة يسمون أهل الطريقة لهم شارات كشارات أهل الطريق وأعلام يكتبون عليها كلمات دينية، كالذي تراه كل يوم عند أهل الطرق»[٣] اهـ.

وبهذا قرّر الشيخ مبارك الميلي: «حدوث التصوف وكونه طارئًا في الإسلام، ولا نزاع في ذلك؛ لأنَّ هذا اللفظ لم يستعمله رسول الله ﷺ في أحاديثه، ولا بلغنا استعماله عن صحابي، ولا وُصف به صحابي ولا تابعي»[٤]، و«إنّما حدث بعد

---

(١) **قال الشيخ مبارك الميلي في**: (عود إلىٰ الحديث عن التصوف «١»): (واللفظة ثابتة في قواميس الإفرنج مشروحة بالمعنىٰ الذي نقلناه منسوبة إلىٰ اليونان بحروفها ومعناها) اهـ. المصدر نفسه (ص: ٦٥٣).

(٢) «تاريخ الجزائر في القديم والحديث» للشيخ مبارك الميلي (الجزء الأول والثاني، ص: ٧١٤ و٧١٥).

(٣) (عود إلىٰ الحديث عن التصوف «١») للعلامة مؤرخ الجزائر مبارك الميلي: «الشهاب»، المجلد (٨)، جزء شعبان (١٣٥١هـ)، (ص: ٦٥٣)، وكلام الشيخ رشيد من: «تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده» (١/ ١٠٩ - ١١٠)، الطبعة الأولىٰ لدار الفضيلة، مصر، (٢٠٠٣م).

(٤) (عود إلىٰ الحديث عن التصوف «٢») للعلامة مؤرخ الجزائر مبارك الميلي، «الشهاب»، المجلد (٩)، =

القرون الثلاثة المشهود لها بالخيرية»[١].

وتحدث الإمام الإبراهيمي عن حدوث بدعة الصوفية، وظهور هذا المذهب - الذي ولَّد مذاهب! - الدخيل الغريب علىٰ كيان الأمة، الذي كان بدايةً من بدايات التفرق الحقيقي في الدين، وعَرَضًا بارزًا مِنْ أَعراضه. وبعد أن ذكر النشأة ودواعيها، تكلَّم عن أطوارها:

❁ ❁ ❁

[الصوفية... في مرحلة السرِّيَّة والتَّكَتُّم]

برزَ «**التصوف**»، وأطلَّ علىٰ الأمّة: مَظهرًا من مظاهر تفرُّقها، حيث زاد في انشقاقها، وخرج عن جماعتها، لكنْ قد أحاطه أولًا «**الغموض**»**!**، واعتصم أربابُهُ بالصمت، يقول الإمام عنه:

هو: «**شيءٌ غامض يُسْعَىٰ إليه بوسائل غامضة**»[٢]. ولمَّا كان سلطانُ العلم والعلماء ظاهرًا قويًّا، أَحْجَمَ أولئك «الصوفية» عن التصريح بمذهبهم، وخافوا العلماءَ أن يفضحوهم، فلجؤوا إلىٰ سلاح: «**من الجَمْجَمَة والرَّمْز وتسمية الأشياء بغير أسمائها**»[٣]، كما تستَّروا بـ«**لزوم السَّمْت والتَّدَرُّع بالصمت والإعراض عن الخلق، والانقطاع والهروب منهم**»[٤]. هذه هي حدود «**التصوف**»، وهذه تراكيبه

=

الجزء الأول، غرة رمضان (١٣٥١هـ)، جانفي (١٩٣٣م)، (ص: ٣٥).

(١) المصدر نفسُهُ (ص: ٣٦).

(٢) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٦).

(٣) المصدر نفسُهُ (١/ ١٦٦).

(٤) المصدر نفسُهُ (١/ ١٦٦).

التي خرج بها أصحابه عن «**جماعة المسلمين**»، وزادوا الأمة فُرقةً علىٰ فرقتها.

ثم بيَّنَ الإمامُ السَّبَبَ في كَوْنِ «**المذاهب الصوفية**» «**أبعد أثرًا في تشويه حقائق الدين وأشدّ منافاةً لروحه، وأقوىٰ تأثيرًا في تفريق كلمة المسلمين**»[(١)]، فقال: «**لأنها ترجع في أصلها إلىٰ نزعة غامضة مبهمة، تستّرت في أول أمرها بالانقطاع للعبادة والتجرد من الأسباب والعزوف عن اللَّذَّات الجسدية والتظاهر بالخصوصية**»[(٢)].

إن غموض هذا المذهب، لدليلٌ آخر علىٰ أنه ليس من الإسلام، فعن العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول، حينما قال له أصحابه: فاعهد إلينا بعهدٍ: «**لقد تركتم علىٰ الواضحة ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك...**»[(٣)].

وادعاؤهم وتظاهرهم بالخصوصية، أيضًا مما يدلُّ علىٰ أن مذاهبهم دخيلة، فليس في الدين وشرائعه ما هو خاصٌّ لطائفةٍ دون أخرىٰ، وقد ظهرت هذه النزعةُ أولًا في الشيعة الأولىٰ - أتباعِ ابن سبإ اليهودي -، التي مزقت الأمة؛ فلقد ادعوا أنَّ عليًّا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ اختصَّ بعلوم وأسرار، ويُكذّب زعمَهم قولُ علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كما في البخاري: «**ما خصَّنا رسولُ الله بشيءٍ...**»[(٤)].

---

(١) المصدر نفسُهُ (١/ ١٦٨).

(٢) المصدر نفسُهُ (١/ ١٦٨).

(٣) رواه: أحمد (٤/ ١٢٦)، وابن ماجه (٤٣)، والحاكم (١/ ٩٦)، وابن أبي عاصم في كتاب «السنة». انظر: «صحيح الترغيب» (رقم: ٥٩)، و«ظلال الجنة في تخريج السنة» (رقم: ٣٣و٤٧).

(٤) رواه البخاري في عدة مواضع، منها: في كتاب الديات، باب العاقلة (رقم ٦٩٠٣ - فتح)، وفي كتاب الجهاد، باب فكاك الأسير (رقم ١٥٩٧)، من حديث أبي جحيفة.

ثم يفيض الإمام في فضح هذه «**المذاهب الصوفية**»، وأنها خليطٌ ومزيجٌ من مذاهب أجنبية عن ذات الأمة، لا تَمُتُّ إلىٰ الإسلام بصلةٍ، فقال: «**وكانت تأخذ منتحليها بشيءٍ من مظاهر المسيحية، وهو التسليم المطلق، وشيءٍ من مظاهر البرهمية وهو تعذيب الجسد وإرهاقه توصلًا إلىٰ كمال الروح زعموا. وأين هذا كله من روح الإسلام وهدي الإسلام؟ ولم يتبين الناسُ خيرَها مِنْ شَرِّهَا لما كان يسُودُهَا من التكتُّم والاحْتِرَاس**»[١].

لقد وضَحَ أن هذا الفكر الصوفي الفلسفي دخيلٌ علىٰ الإسلام، يرجع أصله إلىٰ الأفكار والمذاهب التي كانت سائدةً في بلاد الفرس والروم والهند[٢]:

---

(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٨).

(٢) ومن عبارات الصوفية الناطقة عن كُنْهِهِم وحقيقة مشربهم الذي اختاروه منهجًا ومسلكًا، وهي شهاداتٌ داخلية واعترافات ذاتية - قولُ الصوفي المشهور عبد الوهاب الشعراني في أول «الطبقات الكبرىٰ» عن شيخه: «وكان سيدي أفضل الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: كثيرٌ من كلام الصوفية لا يتمشىٰ ظاهره إلَّا علىٰ قواعد المعتزلة والفلاسفة، فالعاقل لا يبادر إلىٰ الإنكار بمجرد عزو الكلام إليهم، بل ينظر ويتأمل في أدلتهم التي استندوا إليها، فما كلُّ ما قاله الفلاسفة والمعتزلة في كتبهم يكون باطلًا» اهـ، علَّق الشيخ إحسان إلهي ظهير (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) في: «التصوف... المنشأ والمصادر» (ص: ١٤٦ - ١٤٧، ط: دار الإمام المجدّد) بقوله: (وبعد هذه الشهادات والاعترافات لا نرىٰ الاحتياج إلىٰ ذكر عبارات الصوفية، ومقارنتها بآراء الفلاسفة والأفلاطونية المحدثة كي لا يطول بنا الحديث... فهذه هي مصادر التصوف، التي استقىٰ منها شجرته حتىٰ نمت وازدهرت، فأينعت وأثمرت، ولا يمكن ردُّهُ إلىٰ مصدر واحد، «فإنَّ أثر المسيحية والأفلاطونية الحديثة والفلسفة البوذية عاملٌ لا سبيل لنا إلىٰ إنكاره في التصوف الإسلامي. وقد كانت هذه المذاهب والفلسفات متغلغلة في الأوساط التي عاش فيها الصوفية، فلم يكن بدّ من أن تترك =

أ- «**الفلسفة اليونانية**»: فأخذوا عن فلاسفة اليونان، وأخذوا بطريقتهم في رياضة النفس.

ب- «**التصوف الهندي**»: وأخذوا عن الهندوك الوثنيين: «**البراهمة**» بعض الطقوس الدينية والرياضات الروحية وأساليب مجاهدة النفس.

كما أخذوا عن: «**المسيحية**»![1]: وفكرة الحلول عند الحلاج، هي بالمعنىٰ المسيحي![2].

=

طابعها في مذاهبهم، ولدينا أدلة كافية توضح أثرها في التصوف ومكانتها منه... وبالجملة يمكن القول بأن التصوف في القرن الثالث - شأنه في ذلك شأن التصوف في عصرٍ من عصوره - ظهر نتيجة لعوامل مختلفة، أحدثت أثرها في مجتمعه. أعني بهذه العوامل: البحوث النظرية في معنىٰ التوحيد الإسلامي، والزهد والتصوف المسيحيين، ومذهب الغنوصية، والفلسفة اليونانية والهندية») اهـ. وينظر: مقدمة تحقيق كتاب «الزهد» للإمام وكيع (الباب الثاني في الزهد والتصوف) لعبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي (١/ ١٣٠ - ١٣١).

(١) هي نسبةٌ مزوّرة إلىٰ المسيح عيسىٰ ابن مريم (ﷺ).

(٢) ذكر أبو حيان الأندلسي أقوال النصارىٰ في «عيسىٰ ابن مريم» ﷺ [عند الآية (١٧) من المائدة من تفسيره «البحر المحيط» (٤/ ٢١٠)، ط: دار الفكر] ثم قال: «ومن بعض اعتقادات النصارىٰ استنبط من تَسَتَّرَ بالإسلام ظاهرًا وانتمىٰ إلىٰ الصوفية حلول الله تعالىٰ في الصور الجميلة، ومن ذهب من ملاحدتهم إلىٰ القول بالاتحاد والوحدة: كالحلاج... وابن العربي المقيم كان بدمشق، وابن الفارض، وأتباع هؤلاء كابن سبعين... وممن رأيناه يرمىٰ بهذا المذهب الملعون العفيفُ التلمساني وله في ذلك أشعار كثيرة... وإنما سردت أسماء هؤلاء نصحًا لدين الله - يعلم الله ذلك - وشفقة علىٰ ضعفاء المسلمين، وليحذروا، فهم شرٌّ من الفلاسفة الذين يكذّبون الله تعالىٰ ورسله ويقولون بقدم العالم، وينكرون البعث. وقد أُولِعَ جهلةٌ ممن ينتمي للتصوّف بتعظيم

=

[انكشاف أمر الصوفية، وذمّ العلماء لهم]

يقول الإمام: «**حتىٰ جرىٰ علىٰ ألسنة بعض مُنْتَحِلِيهَا كلمات كانت ترجمة لبعض ما تحمل من أوزار، فَرَابَ أئمة الدين أمرها، وانفتحت أعين حراس الشريعة فوقفوا لها بالمرصاد**»[١]، وقد نقل ابن الجوزي في «**تلبيس إبليس**» «علىٰ الصوفية» شيئًا من ذلك؛ منها قول أبي طالب المكي: ليس علىٰ المخلوق أضر من الخالق. فبدّعه الناس وهجروه[٢]، وأول من تكلم لهم في ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية ذو النون المصري، وهجره لذلك علماء مصر[٣]، وأُخرِج أبو سليمان الداراني، حيث زعم أنه يرىٰ الملائكة ويكلمونه[٤]، وأنكر أهل بسطام علىٰ أبي يزيد البسطامي وأخرجوه، حيث قال: لي معراج كما كان للنبي ﷺ معراج[٥]، وظهر منهم من يقول: إنه يستمد من الله مباشرة، وأُثر علىٰ لسان الصوفية أشياء منكرة مستبشعة، أثبتها من صنَّف لهم وكَتَبَ في تاريخهم.



[ابتداعات الصوفية]

ثم يقول الإمام: «فَلَاذَ مُنْتَحِلُوهَا بفُرُوقٍ مُبْتَدَعَة يريدون أن يثبتوا بها خصوصيتهم

=

هؤلاء وادّعائهم أنهم صفوة الله وأولياؤه، والردُّ علىٰ النصارىٰ والحلولية والقائلين بالوحدة هو من علم أصول الدين» اهـ.

(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٨).

(٢) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص: ١٥٩/ ط: دار القلم - بيروت - ١٤٠٣هـ).

(٣) المصدر نفسه (ص: ١٦١).

(٤) المصدر نفسه (ص: ١٦١).

(٥) المصدر نفسه (ص: ١٦٢).

كالظاهر والباطن، والحقيقة والشريعة، إلىٰ ألفاظ أخرىٰ من هذا القبيل لا تخرج في فحواها عن جعل الدين الواحد دينَين»(١).

يقول ابن الجوزي في «**تلبيس إبليس**» - بعد أن ذكر مبدأ التَّسمي بالصوفية، مِنْ أقوامٍ انقطعوا إلىٰ العبادة وتعلَّقُوا بالزهد -: «... ثم ما زال الأمر ينمي والأشياخ يضعون لهم أوضاعًا ويتكلمون بواقعاتهم «يعني أهواءهم»، ويَتَّفِقُ بعدُهُمْ عن العلماء، لا، بلْ رؤيتهم ما هم فيه أَوْفَىٰ العلوم حتىٰ سمَّوْهُ العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر... ثم تشعَّبت بأقوام منهم الطرق، ففسدت عقائدهم... وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتىٰ جعلوا لأنفسهم سُنَنًا...»(٢).

ويقول الإمام: «والصوفية يقولون إنَّ علومهم هي لُباب الشريعة وحقيقتها»(٣)، فليس التصوف ومذاهب الصوفية كما يَظنُّ من لا يعلم، وكما يُصوّرها من لا يعرف حقيقة القوم، هي: العناية بالتربية الروحية، وتزكية النفس، والتخلق بأخلاق القرآن والسنة والسلف الصالح... إلخ، بل هو مذهبٌ اسْتَقَلَّ أصحابُه في عقائدهم وأفكارهم وأعمالهم، لا صلة لها بالإسلام، وبما كان عليه المسلمون الأولون(٤).



---

(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٨).

(٢) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص: ١٥٨ - ١٥٩).

(٣) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٤).

(٤) **ينظر**: مقدمة تحقيق كتاب «الزهد» للإمام وكيع (الباب الثاني في الزهد والتصوف) لعبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي (١/ ١٣٠).

[الصوفية تَسْتَعْلِنُ بمذهبها]

تقوّت المذاهب الصوفية علىٰ مرِّ الزمن، وأخذت لها صبغةً خالصةً مستقلةً، ووجدت لها موضعًا في هذه الأمة التي مزَّقتها البدع وفتَّتَتْ وحدتها، وأفسدت دينها، حيث «كان لأفكار الفُرْسِ الإلحادية تأثيرٌ كبيرٌ في هذا التصوف الفلسفي، بل الفُرْسُ هم الذين دبَّروا المكيدة ضد الإسلام وعقيدته، حيث تستَّروا باسم الإسلام ونشروا الزندقة والإلحاد والخلاعة والمجون باسم الدين... وكان تركيزهم علىٰ بعض المبادئ والأفكار... [من ذلك:] عقيدة وحدة الوجود والحلول والاتحاد... والتركيز علىٰ النظام الباطني... وكان وراء هذه الفتنة: ابن عربي والحلاج وابن الفارض ومن تبعهم، وهم اعتمدوا علىٰ «**تأويل النصوص وتحريفها**»، و«**الكشف**»، و«**العلم الباطني**»»[1].

«والمطَّلِعُ علىٰ الحركة الصوفية من أول نشأتها إلىٰ حين «**ظهورها العَلَني**» علىٰ هذا النحو يجدُ أساطين الفكر الصوفي في القرنين الثالث والرابع الهجري كانوا من الفُرْس، وفي نهاية القرن الثالث استطاع الحلَّاج أن يظهر مُعْتَقَدَهُ علىٰ الملإ؛ مِنْ أنَّ اللهَ حلَّ في شخصه: [«**مذهب الحلول**»]، فأفتىٰ علماء عصره بكفره وقتله سنة: «٣٠٩هـ»»[2].

يقول الإمام: «وما كاد السيفُ الذي سُلَّ علىٰ الحلاج وصَرْعَىٰ مَخْرَقَتِهِ يُغْمَدُ

---

(١) **ينظر**: مقدمة تحقيق كتاب «الزهد» للإمام وكيع (الباب الثاني في الزهد والتصوف) لعبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي (١/ ١٣١).

(٢) «الصوفية، في ميزان الكتاب والسنة» لمحمد بن جميل زينو (ص: ٥). وقال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس» (ص: ١٦٦ - ١٦٧): (اتفق علماء العصر علىٰ إباحة دم الحلاج... وقد تعصب للحلاج جماعة من الصوفية جهلًا منهم وقلّة مبالاة بإجماع الفقهاء... وقد جمعت في أخبار الحلاج كتابًا بينت فيه حِيَلَهُ ومخاريقه وما قال العلماء فيه، والله المعين علىٰ قمع الجهال) اهـ.

ويُوقِنُ القوم أنهم أصبحوا بمنجاةٍ من فَتكَاتِهِ، حتىٰ أجمعوا أمرهم وأبدَوْا للناس بعض مكنونات أسرارهم ملفوفةً في أغشية جميلة من الألفاظ، ومحفوفةً بظواهر مقبولة من الأعمال»[١]، وعمدوا إلىٰ المغالطة والتمويه، بل وإلىٰ الكذب الصريح، فكم روَّجوا للأحاديث الباطلة المكذوبة.

وحاولت المذاهب الصوفية أن تفتعل لها نسبةً وصلةً بالدين، فزعموا: أنها موروثةٌ عن النبي ﷺ، وأن لها سندًا متصلًا إلىٰ بعض الصحابة.

يقول الإمام: **«وحاولوا أن يصلوا نِحْلَتَهُمْ تلك بعُجَرِها وبُجَرِها بصاحب الشريعة أو بأحدِ أصحابه فلم يفلحوا، وافتضحت حيلتهم وانقطع الحبل من أيديهم، فرجعوا إلىٰ ادّعاء الكشف وخَرْقِ الحُجُب والاطلاع علىٰ ما وراء الحس إلىٰ آخر تلك «القائمة» التي لا زلت تسمعها من أفواه العامة وتجدها في معتقداتهم»**[٢].

واعلم أن كل صوفي يؤمن بالكشف، الذي يعرّفه الصوفية بأنه: «الاطلاع علىٰ ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والأمور الحقيقية وجودًا وشهودًا»[٣]، والله تعالىٰ قال: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

قال أبو يعلىٰ الزواوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **«١٨٦٢م - ١٩٥٢م»**[٤] **عن المتصوّفة: «إنَّهم**

---

(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٨).

(٢) المصدر نفسُهُ (١/ ١٦٨).

(٣) **عبد الرحمن الوكيل**: تحقيق كتاب «مصرع التصوف» للبقاعي (ص: ١٨٨ - ١٩٢).

(٤) **انظر ترجمته في**: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ٦٥ - ٧٠) للحسن فضلاء، ومقال: (الشيخ أبو يعلىٰ الزواوي، الملقب بـ «شيخ الشباب وشاب الشيوخ»)، أعدَّه: عز الدين رمضاني، نُشر في مجلة «الإصلاح» [تصدر عن دار الفضيلة، الجزائر]، العدد الثاني، ربيع الأول/ ربيع الثاني ١٤٢٨هـ الموافق لـ: مارس/ أفريل ٢٠٠٧م، (ص: ٥٦ - ٦٥).

يثبتون الخيالات والأوهام المتقدِّمة [عقيدة إسناد الحوادث إلىٰ الأولياء الأموات أو لأهل الديوان...] بالكشف الذي يقولون به، وأصولُ الشريعة وفروعُهَا لا تقولُ به. ولنا – ولله الحمد – شريعة واضحة... ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣]... وعليه فالمتصوفة المسلمون مقيَّدون بالشريعة ولا سبيل إلىٰ غيرها إلّا بالمروق من شريعتهم»، وقال: هذا هُوَ: «الوهم والضلال الباطني الباطل الذي وقع فيه المتصوفة أكثر من غيرهم» اهـ[1].

❋ ❋ ❋

[اتحاد الصوفية مع الباطنية]

امتزج مذهب الباطنية بهذه المذاهب الصوفية وخالطها وخالطته في القرن الخامس، يقول الإمام: «ثم أَمِرَ أَمْرُ هذه الصوفية وتَقَوَّت علىٰ الزمن، والتقت مع الباطنية وغيرها من الجمعيات التي تبني أمرها علىٰ التَّستُّر علىٰ طبيعة دسَّاسَة وعِرْقٍ نزّاع ومزاج متّحد. واختلطت تعاليم هذه بتعاليم تلك. وتشابهت الاصطلاحات وابتلي المسلمون من هذه النِّحَل بالداء العضال. وقد اتسع صدرها بعد أن تعدّدت مذاهبها، واختلفت مشاربها في القرون الوسطىٰ والأخيرة من تاريخ الإسلام فانضوىٰ تحت لوائها كلُّ ذي دخْلَةٍ سيِّئة وعقيدة رديئة حتىٰ أصبح التصوف حيلةَ كلِّ محتال، وحيلة كلِّ دجال»[2].

---

(١) مقالة: (التصوف؟؟)، «البصائر»، العدد (٧)، (٢١) ذو القعدة ١٣٥٤هـ، (١٤) فيفري، ١٩٣٦م، (ص: ٤ – ٥).

(٢) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٦٨).

[شبهاتٌ يجيب عنها الإمام]

يدَّعِي الصوفية انتسابهم لرجال التصوف الأولين أمثال الجُنَيْد وغيره، ومنهم من ينعتُهم بـ«**الصوفية السنِّيِّين**»!، ويجعلون انتسابهم إليهم دليلًا علىٰ صحة مذهبهم، **وشرعيّة** «**تصوفهم**»!، يجيبُ الإمام عن هذا، فيقول: «**ونحن نعلمُ من طريق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة أنَّ بعض أصحاب هذه الأسماء الدائرة في عالم التصوف والطرق كانوا علىٰ استقامة شرعية وعملٍ بالسُّنَّة ووقوفٍ عند حدود الله. فهم صالحون بالمعنىٰ الشرعي، ولكنَّ الصلاح لم يأتهم من التصوف أو الطرق وإنما هو نتيجة التديُّن، وفي مثل هؤلاء الصالحين الشرعيين إنما نختلف في الأسماء؛ فنحن نسميهم صالحي المؤمنين وهم يسمونهم صوفية...**»[(١)].

وقريبًا من جواب الإمام، يجيبُ الشيخ مبارك الميلي أحدَ المتصوّفين بقوله: «إن كنت تعني أن في الصوفية أهل علم ودين يستحقون الثناء فهذا لا أنازعك فيه، وقد أثبتُّ منهم سنّيّين وذكرت منهم الجُنَيْد وشيئًا من كلامه، **ووصْفُ الرجل بالسنَّة أبلغُ الثّناء عندي، فإن وافقتني فما هذه الجعجعة؟ وإن رأيتَ أنّ لفظة «صوفي» أشرف من كلمة «سنِّيّ» فلكم دينكم ولي دين**»[(٢)].

ثم يَرجع الإمام إلىٰ هذه النِّحْلَة، ويصرح بعدم شرعيتها، وأنها دخيلة، فيقول: «**ثمَّ ما هذا التصوف الذي لا عهدَ للإسلام الفطري النَّقِيِّ به؟ إنَّنَا لا نُقِرُّهُ مظهرًا من مظاهر الدين أو مرتبةً عليا من مراتبه، ولا نعترف من أسماء هذه المراتب إلَّا بما في**

---

(١) المصدر نفسُهُ (١/ ١٧٤ - ١٧٥).

(٢) (عود إلىٰ الحديث عن التصوف «٢») للعلامة مؤرخ الجزائر مبارك الميلي، «الشهاب»، المجلد (٩)، الجزء الأول، غرة رمضان ١٣٥١هـ، جانفي ١٩٣٣م، (ص: ٣٣).

القاموس الديني: النُّبوَّة والصدِّيقيَّة والصحبة والاتباع ثم التقوىٰ التي يتفاضل بها المؤمنون، ثم الولاية التي هي أثرُ التقوىٰ، وإن كنَّا نُقِرُّهُ فلسفةً روحانية جاءتنا من غير طريق الدين ونُرغمها علىٰ الخضوع للتحليل الديني»[1]، ولقد كشف التحليل الدينيُّ السَّلَفِيُّ عن سوء هذه الدخيلة.

ثم ينتقد الإمام هذه التسمية، ولا يعترف بها من أصلها، بعد أن انتقد المسمَّىٰ، وكشف عن سَوْأَتِهِ، يقول: «**وهل ضاقت بنا الألفاظ الدينية ذات المفهوم الواضح والدقَّة العجيبة في تحديد المعاني حتىٰ نستعير من جرامقة اليونان، أو جرامقة الفُرس هذه اللفظة المبهمة الغامضة التي يتَّسع معناها لكلِّ خير ولكلِّ شر؟**»[2].

ثم يشدّد في إنكار هذا المصطلح الدخيل ينبوعِ الفتن، والذي جلب شرًّا عظيمًا علىٰ الأمة، حينما تساهلت في أمره، ولم تَسْتَبِنْ خطره، قال: «**ويمينًا، لو كان للمسلمين يوم اتسعت الفتوحات، وتكوَّنت «المعامل» الفكرية ببغداد ديوانُ تفتيش في العواصم ودروب الروم ومنافذ العراق العجمي، لكانت هذه الكلمة من «المواد الأولية» المحرَّمة الدخول..**»[3]

❊ ❊ ❊

[ماذا أنتج لنا التصوّف؟]

ويقول: «فقد أصبحت هذه الكلمة التي غفلوا عنها أُمًّا ولودًا تَلِدُ البَرَّ والفاجر. ثم تمادىٰ بها الزمن فأصبحت قلعة محصنة تُؤْوي كلّ فاسق وكلّ زنديق وكلّ مُمَخْرِق

---

(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٧٥).

(٢) المصدر نفسُهُ (١/ ١٧٥).

(٣) المصدر نفسُهُ (١/ ١٧٥).

وكلّ داعر وكلّ ساحر، وكلّ لصّ وكلّ أَفَّاكٍ أثيم. وانظر طبقات الشعراني الكبرىٰ وما طبع علىٰ غرارها من الكتب تجد أصناف المحتمين بهذه القلعة – وهم ببركة حمايتها – طلقاء من قيود الشريعة»[١]، ولا تزال هذه الكتب الصوفية – للأسف – يُروَّج لها، وتُعَاد طباعتها، ويُتمدَّح بها، علىٰ أنها تراثٌ أصيل، تركه الأجداد للأحفاد، «**أَفَيَجْمُلُ بجنود الإصلاح أن يدَعُوا هذه القلعة تحمي الضلال وتؤويه أم يجب عليهم أن يحملوا عليها حملة صادقة شعارهم «لا صوفية في الإسلام» حتىٰ يدُكُّوها دكًّا وينسفونها نَسْفًا ويَذَرُوها خاويةً علىٰ عروشها؟**»[٢].

ونقول: بل يجب عليهم أن يحملوا حملةً صادقةً علىٰ قلعة الباطل، غَيْرَةً علىٰ الدين، ونصحًا للمسلمين، وكفىٰ تغريرًا بهم، وغشًّا لهم.

ونقول للذين لا يزالون يحسنون الظنَّ بهذه المذاهب، أو لا يزالون يُصَوِّرُونَهَا في صورة جميلة!، ويعملون علىٰ إظهار محاسنها!:

إنَّ مصطلح «التصوف» لا يخلو من أمرين:

إمَّا أن يدل علىٰ معان مخالفةٍ لما جاء به الشرع، فيكفي هذا دليلًا علىٰ بطلانه [**وهذا هو موضعُهُ**].

وإمَّا أن يكون دالًّا علىٰ معانٍ مشروعةٍ، ففي هذه الحال يجب تسميةُ هذه المعاني المشروعة بالأسماء التي سمَّاها بها الشرع، فإنه لما ابتُدِعَ هذا المصطلح انفتح بابٌ للشرِّ عظيمٌ، وتسبّب في أضرار بالغة علىٰ المسلمين، فقد أدخل عليهم الكثير من العقائد المنحرفة والتصوّرات الفاسدة[٣].

---

(١) المصدر نفسُهُ (١/ ١٧٥).

(٢) المصدر نفسُهُ (١/ ١٧٥).

(٣) **انظر**: مقدمة الدكتور محمد الخميس علىٰ رسالة «الحماسة السنية في الرد علىٰ بعض الصوفية» للشيخ

وختامًا:

يقولُ الإمام في فصلٍ آخر، يجمعُ ما تقدَّمَ بيانُهُ، ويخلُصُ فيهِ إلىٰ الموقفِ الحقِّ مِنْ هذه النِّحْلة:

«والصوفية، أو الطرقية - كما نسمِّيها نحن في مواقفنا معها - هي نزعة مستحدثةٌ في الإسلام لا تخلو من بذور فارسية قديمة، بما أنَّ نشأة هذه النزعة كانت ببغداد في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة، واصطباغ بغداد بالألوان الفارسية في الدين والدنيا معروف، وتدسّس بعض المتنطعين من الفرس إلىٰ مكامن العقائد الإسلامية لإفسادها، لا يقلُّ عن تدسّس بعضهم إلىٰ مجامع السياسة، وبعضهم إلىٰ فضائل المجتمع وآدابها لإفسادها، ومبنىٰ هذه النِّحْلَة في ظاهر أمرها التبتّل والانقطاع للعبادات التي جاء بها الإسلام، ومجاهدة النفس من طريق الرياضة بِفَطْمِهَا عن الشهوات حتىٰ تصفو الروح وتشفّ وترقّ وتتأهل لمشارفة الملَإِ الأعلىٰ، وتكون بمقربة من أفق النبوّة، وتتذوّق لذة العبادة الروحية، وقد افترق النازعون إلىٰ هذه النزعة من أول خطوةٍ فِرَقًا، وذهبوا فيها مذاهب، من القصد الذي يمثّله أبو القاسم الجُنَيْد، إلىٰ الغلوّ الذي يمثله أبو منصور الحلاج، إلىٰ ما بين هذين الطرفين.

وكانت لأئمة السنّة وحماتها - الواقفين عند حدودها ومقاصدها ومأثوراتها - مواقف مع الحاملين لهذه النزعة، وموازين يزنون بها أعمالهم وآراءهم وما يبدر علىٰ ألسنتهم من القول فيها، ولسان هذه الموازين هو صريح الكتاب وصحيح السنّة، وكانت في أول ظهورها بسيطة تنحصر في الخلوة للعبادة أو الجلوس لإرشاد وتربية من يشهد مجالسهم، ثم استفحل أمرها فاستحالت علمًا مستقلًّا، يشكّل

=

حسن البحيري - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - (ص: ٤ - ٩).

معجمًا كاملًا للاصطلاحات، ودوّنت فيها الدواوين التي تحلّل وتشرح، وتصف الألوان الباطنية للنفس، وتبيّن الطريق الموصل إلىٰ الله والوسيلة المؤدية للسعادة وكيفية الخلاص من مضائق هذه الطريق وأوْعارها، ثم انتقلت في القرون الوسطىٰ من تلك الأعمال التي تستر أصحابها، إلىٰ الأقوال التي تفضحهم، فخاضوا في شرح مغيَّبات، وأفاضوا في جدال مكشوف بينهم وبين خصومهم، وكانوا سببًا من الأسباب الأصيلة في شقّ الأمة شقّين: أنصارًا ومنكرين، وضاعت في هذا الضجيج ثمرة هذه النِّحْلَة وهي رياضة النفس اللَّجوج علىٰ العبادة وقمع نزواتها البدنية، وأصبحت هذه النِّحْلة أقوالًا تدافع، يقولها من لا يفقه لها معنىٰ، فضلًا عن أن تصطبغ بها نفسه، والحقُّ في هذه النزعة أنها صبغة روحية مرجوحة في ميزان الشرع وأحكامه، وإنما يُقبل منها ما يُساير المأثور، ولا يُجافي المعروف من هَدْيِ محمد ﷺ وأصحابه، فإنَّ الدين قد تكامل بختام الوحي، والزيادة فيه بعد ذلك كالنقص منه كلاهما منكرٌ، وكلاهما مرفوضٌ، وما لم يكن يومئذٍ دينًا فليس بدين بعد ذلك» اهـ[1].

وخُلاصةُ الخُلاصة، ما قاله الشيخ أبو بكر جابر الجزائري في رسالته: «**إلىٰ التصوف... يا عباد الله**»!: «إنَّ التصوُّفَ إمَّا أن يكون هو الإسلام أو غيره، فَإِنْ كان هو الإسلام فَحَسْبُنَا الإسلامُ، وإِنْ كان غيره فلا حاجةَ لنا به» **انتهىٰ**.



(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (٥/ ١٤١ - ١٤٢).

مُلْحَقٌ رقم (١):
متى ظهر التّصوّف في الجزائر وفي بلاد المغرب؟

أنقل هنا بعضًا من فصل: «التصوّف والصوفيّة» من كتاب: «**تاريخ الجزائر في القديم والحديث**» لمؤرخ الجزائر الفذّ، العلَّامة مبارك الميلي رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَىٰ، قال: «ظهر علىٰ مسرح السياسة غلاة الشيعة الإمامية والإسماعيلية والقرامطة. فلما غمرتهم القوة العباسية تدثَّرُوا بالزهد والنسك، ونشروا دعاتهم في البلاد لاصطياد غفل العوام بأشراك سُداها التدجيل بالغلو في العبادة والمبالغة في تعظيم آل البيت ونسبة الكرامات إليهم، وبهذا تأسست دولة بني عبيد الذين كان منهم من ادعىٰ الألوهية أو ادعيت له. هذه صورة مصغرة لحياة المسلمين الدينية والسياسية في القرن الثاني» [(الجزء الأول والثاني/ ص: ٧١٣ – ٧١٤)]، وقال: «وقد عرفت الجزائر التصوف زمن بني عبيد، لكن العلماء أنكروا عليهم وكفّروهم... فلم يكن يومئذٍ بالمغرب شأنٌ للصوفية إلىٰ أن جاءت الدولة المؤمنية ونشرت المعارف ونصرت الفلسفة، فظهر من الصوفية رجال ذوو علم طار صيتهم في الآفاق، ولكن لقوة نفوذ الدولة لم يتغلبوا علىٰ العامة حتىٰ سقطت، وخلفتها دولٌ تنازع أمراؤها أمرهم بينهم فضعف سلطانهم، وعلت كلمة الصوفية فمثّلوا أدوارهم مع العامة وكان ذلك مبتدأ انحطاط الجزائر والمغرب دينيًّا وسياسيًّا» [(الجزء الأول والثاني/ ص: ٧٢٠)].

وقال: «وقد استمال الصوفيةُ العامة بظواهرهم فمالت إليهم؛ لتقريبهم لها طريق السعادة بالرياضة التي هي علىٰ العامة أيسر من العلم، وباعتقاد أن شيوخهم يحملون عنهم تقصيرهم في الدين، فكان للصوفية نفوذ اضطر الأمراء الجائرين إلىٰ خدمتهم

وعلماء السوء إلىٰ تأييدهم من غير فرق بين سنّي وغيره، فأصبح التّصوّف مطلقًا هو لبّ الدين في عقد العامّة ومغفَّلي العلماء...» [(الجزء الأول والثاني/ ص: ٧١٦)].

- **وقال الشيخ أبو يعلىٰ الزواوي**: «... دسائس الباطنية السارية في الأمة بعد الثلاثة القرون، وبالفعل إن الدولة الباطنية تأسست في القرن الرابع أي **تمكنت فيها بالدولة الفاطمية القائمة في وطننا هذا «الجزائر»**، فطمىٰ سيلها بجحافلها إذ استولت علىٰ مصر والشام وبلغت حلب، وإن القرمطة فرع منها وغلاة مذهبه المخزي فعظمت فتنتهم... وعليه **فالسموم التي تركوها عندنا بالجزائر** والبيض الذي باضوه في مصر - **باقٍ إلىٰ اليوم وحتىٰ اليوم وقلَّبُوا لنا الأمور**...»[(١)]، وقال: «... إلىٰ أواسط القرن الرابع حين **تغلغلت الشيعة ودان أهل بلدنا هذا بها وبالرافضة وألوهية الأئمة، ولا سيما علىٰ عهد الدولة الفاطمية، وكذلك علىٰ عهد الدولة الموحدية** الذين دانوا بعصمة الأئمة المتوراثة عن المتمهدي محمد بن تومرت مؤسس تلك الدولة أواسط القرن السادس... وبالجملة إنّ هذه السموم سرت في الأمة الإسلامية، ولا ينكرُ أحدٌ علينا هذه الأدلة وكذلك يزاد غلوّ المتصوفة...»[(٢)].

❊ ❊ ❊

---

(١) **مقالة**: (إلىٰ المتوسلين بالقبور)، «البصائر»، العدد (٤٩)، (١٨) شوال (١٣٥٥هـ)، ٠١ جانفي (١٩٣٧م)، (ص: ٥).

(٢) **مقالة**: (محاربة البدع: إلىٰ طلبة العلم)، «صدىٰ الصحراء»، العدد (١٢)، ٠١ رمضان (١٣٤٤هـ)، (١٥) مارس (١٩٢٦م)، (ص: ٢ - ٣).

ملحق رقم (٢): مظاهرُ اتِّحَادِ الصوفية بالشيعة الباطنيَّة

- **قال الشيخ أبو يعلىٰ الزواوي**: «إن الإسماعيلية والموساوية أو الاثني عشرية والإمامية والباطنية - من الفرق الإسلامية - قالوا: لن تخلو الأرض قط من إمام ظاهر وباطن وبأن لكل باطن ظاهرًا ولكل تنزيل تأويلًا، ولقيت هذه الفرق من الاضطهاد في القرن الثاني الهجري ما لقيت، لغلوها وبدعها، ثم ما كادت تضمحل أواخر القرن الثاني، حتىٰ ظهر رجل ودلس، اسمه عبد الله بن ميمون من فارس محط الغلاة من الرافضة والشيعة، فأراد أن يستعمل الإسماعيلية لأغراضه، فادعىٰ أنه شيعي غيور، وهو في الحقيقة دهري لا يعتقد بشيء، وأسس الإسماعيلية جمعية، **هكذا صار الإسلام جمعيات سرِّيَّات باطنيات ذوات المكاشفات،** واستعمل لذلك من الدهاء والحيل ما لا مزيد عليه، ورتبها علىٰ تسع رتب، لا يرقىٰ أحدٌ من رتبة إلىٰ ما فوقها إلا بالاستعداد والأهلية. **قلت: ولا يَبْعُدُ أن تكون درجات وتلقينات المتصوفة من هذا القبيل، فليحذروا كلَّ الحذر، وإلَّا فالصحابة وجميع التابعين لم يكن ليُعْرَفَ عندهم تلقين الأسرار والأسماء والأذكار لامرئٍ دون امرئٍ، كما سئل علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن ذلك، أي: وهل خصَّهُم النَّبِيُّ ﷺ بشيءٍ أو لا، فأجاب بالسلب، وكذلك لم يُعْرَفْ في السلف الصالح هذا صوفي وهذا غير صوفي، وكذلك لم يُعرف عندهم اسم القطب والغوث والأبدال والديوان والمتصرفين في الباطن وفيما وراءَ الحسّ[1] والقول بوحدة الوجود،** وهذه كلها كما نبَّه عليها أبو حيان في «تفسيره»، وابن خلدون في «مقدمته»، **وأنَّ القائلين بها الغلاة**

(١) في الأصل: «ما رواه الحسن» !، والصواب ما أثبتُّ أعلاه.

من الشيعة مثل محيي الدين ابن العربي وابن الفارض وابن العفيف والنجم الإسرائيلي وابن سبعين المخالطين للإسماعيلية الباطنية ومن سلفهم منهم إلخ...»[(١)].

- ونقل الشيخ أبو يعلىٰ كلامَ عبد الرحمن بن خلدون في «**المقدمة**»[(٢)] في: «المتأخرين من المتصوفة»، ومما جاء فيه: «... وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضًا بالحلول وإلهية الأئمة مذهبًا لم يعرف لأولهم، فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم...» اهـ[(٣)].

- وأنقلُ فصولًا مهمَّة من «**رسالة الشرك ومظاهره**» للعلّامة مبارك الميلي، **يقولُ تحت عنوان:**

«ابتداع نسبة علم الغيب للمخلوق»

«ص: ١٢٩»: «وقد بَيَّنَ ابن قُتَيْبَة - لسان أهل السنة في القرن الثالث - مبتدعي علم الغيب للمخلوق مع الحكم بكفرهم، فقال في «**رسالة الاختلاف في اللفظ**»: «غلت الرافضة في حب علي، وتقديمه علىٰ من قدمه رسول الله ﷺ وصحابته عليه، [وادعائهم][(٤)] له شركة النبي [ﷺ] في نبوته، وعلم الغيب

---

(١) «صدىٰ الصحراء»، مقالة: (حي علىٰ الإصلاح «٥»)، العدد (٩)، (ص: ٣)، (٢١) رجب (١٣٤٤هـ)، ٠١ فيفري (١٩٢٦م)، ومقالة: (حي علىٰ الإصلاح (٦))، العدد (١٠)، (ص: ٣)، (٢٨) رجب (١٣٤٤هـ)، ٠٨ فيفري (١٩٢٦م).

(٢) **انظر**: «مقدمة ابن خلدون» (ص: ٤٧٣)، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة.

(٣) **مقالة**: (الخلافيات: كتاب الإرشاد لابن قشوط (٢))، «الشهاب»، العدد (١١٨)، (٢٣) ربيع الثاني (١٣٤٦هـ)، (٢٠) أكتوبر (١٩٢٧م)، (ص: ١٢ - ١٥)، ونقله أيضًا في: مقالة: (التصوف؟؟)، «البصائر»، العدد (٧)، (٢١) ذو القعدة (١٣٥٤هـ)، ١٤ فيفري (١٩٣٦م)، (ص: ٤ - ٥).

(٤) وردت الكلمة في «رسالة الشرك»: [ادعائه]، والتصويب من «رسالة الاختلاف في اللفظ».

للأئمة من ولده، وتلك الأقاويل والأمور السرية التي جمعت إلىٰ الكذب والكفر، إفراط الجهل والغباوة» «ص: ٤٧»[1]، وقد سرت هذه البدعة من الرافضة إلىٰ متأخري الصوفية؛ لاندماج الطائفتين بعضهما في بعضٍ، وانتحال الصوفية كثيرًا من العقائد التي ابتدعها الرافضة» اهـ.

وقال في «ص: ٢٦٢»، في الفصل «٢٩ - هداة الشرك وحماته»:

«مصدر البدعة:

ومصدر الابتداع في الإسلام المنافقون والزنادقة، وأول بدعة تتصل بالشرك إنما عرفت عن أحدهم وهو عبد الله بن سبإ اليهودي، وبدعته هي التظاهر باحترام آل البيت والتشيع لعلي كرَّم الله وجهه[2]، حتىٰ أتىٰ في ذلك بما لا يتفق والإسلام، فطلبه علي في خلافته ففر منه، وقد غرس أفكاره وتعاليمه في طائفة نسبت إليه فدعيت «السبئية». ومن بذوره نبتت الشيعة الباطنية والرافضة الإسماعيلية».

وقال تحت عنوان: «ابتداع الشرك بالغلوّ في التشيع»:

«... وقد قدّمنا في «فصل علم الغيب» نسبة ابن قتيبة ابتداع القول بعلم آل

---

(١) «الاختلاف في اللفظ والردّ علىٰ الجهميّة والمشبّهة» لعبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ (ت: ٢٧٦هـ)، (ص: ٤١)، ط: دار الكتب العلميّة، بيروت.

(٢) تخصيص عليّ بهذه العبارة عند ذكره، يُشَمُّ منه رائحة التّشيّع، وهو ممّا تسرّب إلىٰ أهل السنّة، فاقتضىٰ التّنبيه.

قال الحافظ ابن كثير في «تفسيره» (٥/ ٥١٣ - ط. الأندلس): (هذا وإن كان معناه صحيحا، لكن ينبغي أن يساوىٰ بين الصحابة في ذلك، فإن هذا من باب التعظيم والتكريم، فالشيخان وأمير المؤمنين عثمان بن عفان، أولىٰ بذلك منه، رضي الله عنهم أجمعين) اهـ.

انظر: «معجم المناهي اللفظية» (ص: ٣٤٨ - ٣٤٩ و٤٥٤) لبكر أبو زيد رحمه الله تعالىٰ.

البيت الغيب إلىٰ الرافضة أيضًا».

ثم قال تحت عنوان: «عجز الغلو في التشيع عن نشر الشرك»:

«وقد كان ضلال الرافضة مكشوفًا للعامة والخاصة من الفرق الإسلامية، فكانوا ممقوتين في المجتمعات لا تروج لهم بضاعة في جميع الطبقات، إلا أن يجدوا غرة في بعض الجهات التي لا تعرف من الدين أكثر من التلفظ بالشهادتين أو صور العبادة المتكررة الفاشية.

مبدأ التصوف واستقامة المتقدّمين عليه:

ودبَّ في الأوساط الإسلامية مبدأ التصوف علىٰ قَدَمَي: الإفراط في العبادة، والتفريط في الدنيا، واشتمل كسائر المبادئ علىٰ الصديق والزنديق، ولكن كان الغالب علىٰ رجاله العلم بالدين والصدق في العمل وموالاة السلف... كان التصوف مرضيًّا عند أهل السنة لانتساب رجاله إلىٰ الأئمة المرضيِّين...

اتحاد الباطنية بالصوفية ومظاهره:

رضي الناس عن التصوف بذلك الانتساب، وأعجبوا بتُقَىٰ رجاله وزهدهم أيما إعجاب. ثم غمرت الثقة بالألقاب، نقد ما في سير الصوفية من خطإ وصواب، فسال لُعَابُ المبتدعين المنبوذين من هذه الثقة التي نعم بها المتصوفون، فاندسوا تحت هذا العنوان ولا سيما الرافضة التي كانت لها مطامع سياسية. وكان التصوف والرفض كلاهما في العجم أشهر وأكثر انتشارًا، فسهل لذلك الامتزاج بينهما، فتكوَّنَ تصوُّفٌ باطني استقلَّ بقيادة العامة أو كاد، واتَّقىٰ بعموم الثقة في عنوان التصوف ألسنةَ النُّقَّاد.

الحلول والاتحاد:

١- وكان من مظاهر اتحاد الرافضة الباطنية بالصوفية ظهور مذهب الحلول والقول بالاتحاد، فقد كان ذلك معروفًا أولًا في الباطنية، ثم ظهر علىٰ متأخري

الصوفية، كابن العربي الحاتمي وابن سبعين وابن العفيف التلمساني وابن الفارض وغيرهم.

القطب وحكومته:

٢- وقال هؤلاء المتأخرون بالقطب(١) ومعناه رأس العارفين، ويزعمون أنه لا يساويه أحد في مقامه حتىٰ يموت فيخلفه آخر. وذلك هو معنىٰ الإمام المعصوم عند الرافضة. واخترعوا للقطب حكومة سرية وديوانًا خياليًّا، وذلك علىٰ نحو ما تحلم به الرافضة في إنشاء حكومة علىٰ مذهبها، فحكومة القطب الغيبية ظل لحكومة ذهنية يراد تحقيقها في الخارج... فحكومة القطب عند الخاصة منهم أمنية سياسية وعند العامة عقيدة دينية.

الأبدال:

٣- وقال متأخرو الصوفية بالأبدال(٢) ورتّبوهم ترتيب الشيعة للنّقباء، والأبدال قد وردت فيهم أحاديث... ولا تخلو أسانيدها من مقال... فهؤلاء الأبدال هم الطائفة الظاهرون علىٰ الحق والمجددون للدين علىٰ رأس كل مائة سنة. وليسوا أبدالَ الصوفية الذين يعتقد فيهم علم الغيب والتصرف في الكون

(١) **قال عبد الرحمن بن خلدون:** (وظهر منهم أيضًا القول بالقطب، وامتلأت كتب الإسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوّفة بمثل ذلك في الفاطمي المنتظَر، وكأنَّ بعضهم يمليه علىٰ بعضٍ ويلقّنه بعضهم عن بعض، وكأنّه مبنيٌّ علىٰ أصول واهية من الفريقين...) إلخ. انظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص: ٣٢٣)، ط: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الرابعة.

(٢) **قال عبد الرحمن بن خلدون:** (وظهر منهم أيضًا القول بالقطب والأبدال، وكأنّه يحاكي مذهب الرافضة في الإمام والنّقباء، وأُشربوا أقوال الشيعة وتوغّلوا في الدِّيانة بمذاهبهم...) إلخ. انظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص: ٣٢٣).

والدلال علىٰ الله من غير أن يعرفوا بعلم وإتقان عمل، بل من كمال الصوفية المتأخرين الرغبة عن العلم...

لباس الخرقة وإسناد الطريقة:

٤- واتخذ أولئك الصوفية شعارهم لباس الخرقة وإلباسها[(١)]، وقالوا: إن الحسن البصري لبسها من علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وتخصيص علي بشيءٍ في الدين هو من بدع الرافضة...

ثمرة اتحاد الباطنية بالصوفية:

تلك مظاهر من اتحاد الصوفية بالرافضة، أما ثمرة هذا الاتحاد فهو توصل الرافضة إلىٰ تحقيق ما عجزت عنه من تشويه محاسن الإسلام وقلب تعاليمه. وإن تعجب لسلامة الصوفية من سوء سمعة الرافضة مع اتحاد الفريقين فأعجبُ من ذلك أن تعلو كلمة هؤلاء الصوفية كلمةَ العلماء ويخصّوا بالفضل دونهم. والكتاب والسنة إنما جاءا بفضل العلم وأهله. وترىٰ من هنا أن هذا التصوف سيفٌ ماضي الحدَّين مؤثر بالجهتين. فجهة النقص فيه وهي اتحاده بالباطنية أثَّر فيها بالتغطية والتعمية حتىٰ لم تشعر بها العامة، وتطاول الأمد فخفيت علىٰ كثير

(١) **قال عبد الرحمن بن خلدون:** (وأُشربوا أقوال الشيعة وتوغّلوا في الدِّيانة بمذاهبهم، حتّىٰ جعلوا مستند طريقهم في لبس الخرقة أنّ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ألبسها الحسن البصريّ وأخذ عليه العهدَ بالتزام الطريقة، واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم، ولا يعلم هذا من عليٍّ من وجهٍ صحيحٍ ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي... بل الصحابة كلهم أسوة في طريق الهدىٰ وفي تخصيص هذا بعليّ دونهم رائحةٌ من التّشيّع قويَّةٌ يُفهم منها ومن غيرها من القوم دخْلُهُم في التشيّع وانخراطهم في سلكه...). انظر: «مقدمة ابن خلدون» (ص: ٣٢٣).

من الخاصة، وجهة الكمال في غيره وهي جهة العلم قلبها رأسًا علىٰ عقب. فاستأثر بما للعلم من شرف وجعل أهله محلَّ رِيبةٍ لا يوثق بدينهم إلا بتوثيق شيوخ التصوف، وهم لا يوثّقون من العلماء إلا من سدل الستار عمَّا في طرقهم من بدع ومنكرات. فأصبح يخطب وُدَّهم كلُّ عالم طماع وكل محتال خداع، وانضافت إليهم هذه الجنود المرتزقة فكان جيشٌ يُهَدِّدُ كُلَّ مُرْشِدٍ نصوح ومُصْلِحٍ إلىٰ المعالي طموح» اهـ.



بيضاء

لاَ طُرُقِيَّةَ في الإِسْلاَم

بيضاء

لاَ طُرُقِيَّةَ في الإِسْلاَم

كان هذا موقف الإمامِ «**الإبراهيمي**»، وغيرِهِ من أئمة الإصلاح، مِنْ «**مذهب التصوف**»، ومن «**الصوفية**».

أمَّا «**الطرق الصوفية**»، فهي أشرُّ من هذا «**التصوف المحدث**»، وأشدُّ بلاءً، وأعظم ضررًا، لذا اشتدَّ نكيرُ المصلحين عليها، ووقفوا لها مواقفَ لا تعرفُ مهادنةً ولا مسالمةً.

وقد أفاض الإمام «**الإبراهيمي**» في فضح هذه «**الطرق**» التي تنتسب إلىٰ «**التصوف**»، فبيَّن مساويها، وكشف مخازيها، وما أكثرَها! حيثُ يطولُ ذكرها لوْ عدَدْناها، فلتُنْظر في «**آثار الإمام الإبراهيمي**»، المجلد الأول، الصحائف «١١٦ - ١١٧و١٢٠ - ١٢١»، و«١٦٨ إلىٰ١٧٧»، ولتُنظر كذلك: في مقالات «**بدعة الطرائق في الإسلام**» للشيخ العربي التبسي، الجزء الثالث «بدعة تصديهم للدعوات»[1]، وفي «**رسالة الشرك ومظاهره**» للشيخ مبارك الميلي، فصل: «هداة الشرك وحماته» «ص: ٢٧٨ - ٢٨٣».

وقدْ لخَّص الإمامُ ذلك في قوله: «فيها... إفساد للعقول وقتل للمواهب»[2]، وقوله: «ومبنىٰ هذه الطرق في ظاهر أمرها وباطنه علىٰ حيوانية شرهة لا تقف عند حدّ في التمتّع بالشهوات، والانهماك في اللّذائذ واحتجان الأموال من طريق الحرام والحلال، واصطياد الجاه وحبّ الظهور والاختلاط بأهل الجاه وإيثارهم والتزلُّف

---

(١) «الشهاب»، العدد (١٦٩)، (ص: ٣ - ٤)، ١٢ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ/ ٢٥ أكتوبر ١٩٢٨م.

(٢) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٩٠).

إليهم»[١]، وقوله: «وبالجملة، فهذا الطراز الطرقي الذي أدركناه من آباء وأبناء يجمعهم قولُك طلاّب دنيا وعُبَّاد شهوات»[٢]، وقوله: «كل ما هو متفشٍّ في الأمة من ابتداع في الدين، وضلال في العقيدة، وجهل بكل شيء، وغفلة عن الحياة، وإلحاد في الناشئة، فمنشؤه من الطرق ومرجعه إليها»[٣].

الطرقية حاميةُ الشرك والهاديةُ إليه:

وأعظمُ سيّئاتهم وأفظعُ جناياتهم: إقرارُهم الشرك بالله وتأليه البشَر، وقطعهم الطريق علىٰ النّاس في توجّههم إلىٰ ربّهم والتجائهم إلىٰ خالقهم، يقول الإمام الإبراهيمي:

«**يجري كلُّ هذا والأشياخ أشياخ يُقدَّسُ ميّتهم وتُشاد عليه القباب، وتُساق إليه النذور، ويُتمرّغ بأعتابه، ويُكتحلُ بترابه، وتُلتمسُ منه الحاجات وتفيض عند قبره التّوسّلات والتّضرعات، ويكون قبره فتنةً بعد الممات كما كان شخصه فتنةً في الحياة. ثم تتوالد الفتن فيكون اسمه فتنة، وأولاده فتنة، وداره فتنة...**»[٤].

ويقول الإمام ابن باديس: «... إنَّ المصلحين ما تصدَّوْا لمقاومة الطرقية إلَّا بعد أن رأوا رؤساءها قد قعدوا للمسلمين علىٰ رأس كل طريق للخير يصدُّونهم عنه، **قعدوا علىٰ طريق التوحيد، فإذا دعونا الناس إلىٰ عبادةِ الله وحده وسؤالِهِ وحده والقَسَمِ بِهِ وحده والرجاء فيه وحده والخوف منه وحده والخضوع له وحده - أَبَوْا إلا أن يحلف الناس بهم وإلَّا أن يخضعوا لهم ويرجُوا «تصرّفهم» لهم ويخافوا**

---

(١) المصدر نفسُهُ (١/ ١٦٩).

(٢) المصدر نفسُهُ (١/ ١٧٦).

(٣) المصدر نفسُهُ (١/ ١٩٠).

(٤) المصدر نفسُهُ (١/ ١٧٢).

«**دعوة شرّهم**...»، إلىٰ أن يقول: «فبعد هذا البيان لا نظنُّ أحدًا من أهل العلم والدين والنُّصح للإسلام والمسلمين يتردَّدُ في استصواب ما سلكه المصلحون من مقاومة الخرافات الطرائقية وضلالاتها ومضارِّها»(١).

وكتب الشيخ مبارك الميلي في «رسالة الشرك ومظاهره» فصلًا بعنوان: «هداة الشرك وحماته»، يقول فيه عن «شيوخ الطرق الصوفية»:

«كانوا هم المشجعين لمن اتحد معهم في الغرض والمضلِّلين لبعض من وقع معهم في هذا المرض. وقد بلغنا لما أعلنّا نشر رسالة «الشرك ومظاهره» أنهم قالوا في مجتمعٍ لهم: «**لا بد لنا من الدفاع عن الشرك**» فكانوا أحقّ أن يسمّوا «**هداة الشرك وحماته**»»«ص: ٢٧٣».

ويقول تحت عنوان: «تأله الطرقيين»: «صرف قلوب الناس عن الله إليهم بالرجاء فيهم والخشية منهم والاعتماد في سعادة الدارين عليهم. وهذا تألّهٌ منهم واستعباد لأتباعهم»«ص: ٢٨٠».

ويقول الإمام الإبراهيمي: «وأكبر جرحة دينيّة فيهم عندي إقرارهم لتلك الأماديح الشعرية الملحونة التي كان يقولها فيهم الشعراء المتزلّفون، وينشدونها بين أيديهم في محافلهم العامة، وفيها ما هو الكفر أو دونه الكفر من وصفهم بالتصرف في السموات والأرضين، وقدرتهم علىٰ الإغناء والإفقار وإدخال الجنّة والإنقاذ من النار، دع عنك المبالغات التي قد تغتفر، كل ذلك وهم ساكتون، بل يعجبون لذلك ويطربون... ولو كانوا علىٰ شيءٍ من الدين لما رضوا أن يسمعوا

(١) **مقالة**: (الأستاذ محب الدين الخطيب ينزل لمقاومة الطرقية والطرقيّين)/ «الشهاب»: (ج٥/ م١٠)، محرم ١٣٥٣هـ، أفريل ١٩٣٤م، (ص: ٢١٠ - ٢١٢).

تلك الأماديح وهم يعلمون كذبها من أنفسهم، ويعلمون أنّ فيها **تضليلًا للعامة وتغريرًا بعقائدها**، وأنَّ **تلك الأماديح المنشورة بين الناس في وطننا هذا - هي سرُّ انتشار الطرقية وتوغّلها فيها**، وقد سمعنا الكثير منها»(١).

وقد حصل في سنة «١٩٣٩م»، أنْ أذاع راديو «تونس»، قصائد ممَّا تلقيه طائفة السلامية، علىٰ لسان شيخها عبد السلام الأسمر: «الدنيا في قبضة يدي، نتصرف في الكون وحدي، نحكم في الكون وحدي أنا هو الإمام المهدي»، فكتب الإمام ابن باديس: «**علىٰ أمواج الأثير: أَمِنْ عاصمة «الزيتونة» يذاع هذا الضلال؟، نموذج كفر...**»، يقول فيه: «من العجيب المؤسف أن يقف جهول خرافي **من صرعىٰ الطرقية** أمام المذياع، فيلقي علىٰ العالم سخافات في مدح من لا يعرف له أثر في دين ولا في دنيا، إلا ما كان في رءوس الجهال المنتسبين إليه الغالين فيه، ثم يتجاوز تلك السخافات إلىٰ الشرك الصريح والكفر البواح...»، إلىٰ أن يقول: «يعلم العلماء أن التوحيد هو الأساس الذي تنبني عليه أعمال الإيمان: أعمال القلوب وأعمال الجوارح، وأنّ الله لا يقبل شيئًا منها إذا انبنىٰ علىٰ الشرك، وقد قال تعالىٰ: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الزُّمَر: ٦٥]»، إلىٰ أن يقول: «إن السواد الأعظم من العامة... قد نخرت صدورهم تلك العقائد الشركية، فكل طائفة منهم تعتقد لشيخها الحكم والتصرف والقبضة علىٰ الكون، **ومثل ما يُلقيه خرافيٌّ مذياع تونس، تجدُهُ في مدائح أشياخهم فاشيًا كثيرًا**»(٢).

---

(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٧٦).

(٢) «البصائر»، العدد (١٥٣)، ٢٧ ذي الحجة ١٣٥٧هـ، ١٨ فيفري ١٩٣٩م، (ص: ١)/ «آثار الإمام ابن باديس» (٦/ ٢٩٢ - ٢٩٤).

تلك سيِّئاتُ الطرقيّة ومفاسدُها، أشرتُ إلىٰ شيءٍ منها، لكنْ أريد هنا أن أنقل مضمون كلام الإمام الإبراهيمي - مع نقولٍ أُخْرَىٰ لأئمةٍ مُصلحين - في [**دفع شبهة ونقض فِرْيَة**] تتعلق بهذا الموضوع، ألا وهي:

أن هناك أناسًا من الطرقيين، ومعهم مَنْ هُوَ محسوبٌ علىٰ الإصلاح «الباديسيّ - الإبراهيميّ» - إن صح التعبير! - ، يعترفون بالآثار السيئة والمخازي المكشوفة التي يرتكبها الكثير - ولا أقول البعض - من الطرقيين، وتقع في كثيرٍ - وليس في بعضٍ - من الطرق! لكن يقوم هؤلاء للدفاع عن الطرق «**الصالحة**» والطرقيين «**الصالحين!**»، والمنافحة عن الصوفية والصوفيين، بحجة أن «هذه الطرق لم يعترها الفسادُ إلّا في القرون الأخيرة»، وهو ما يعبر عنه بعضهم بقوله: «**التصوف الصحيح**»، وآخرون بـ«**الطرقية السنيَّة**»، وجازف البعضُ، فقال: «**تسليف الصوفيّة**»، ولعلَّ مقصود هؤلاء وأولئك: توثيق نسبتهم بـ«**الصوفية الأولين**»، أو «**أسماء لامعة في سماء التصوف**»!، وأنهم بذلك متبعون للسَّلف الصالح!!

ولندع الأئمة «**المصلحين**» «**السَّلَفيين**»؛ من أئمة الإصلاح في الجزائر[1]، ينقضون زعمهم هذا، وهم يرفعون هذه المرَّةَ شعار: «**لا طرقية في الإسلام**»:

الطرق بدعةٌ في الإسلام:

يقول الإمام الإبراهيمي: «وذلك أننا لما أنكرنا عليهم باطلهم الذي يرتكبونه باسم الدين، زعموا أن الطريق هي الدين، ولما نقضنا لهم هذه الدعوىٰ...» اهـ[2]،

---

(١) وأحيانًا أنقلُ عن غيرهم.

(٢) «آثار الإبراهيمي» (١/ ١٧٤).

ونقضُ تلكم الدعوىٰ: أن الطريق والطريقة، إحداثٌ في الدين، وبدعة في الشرع، ومنكرٌ وباطلٌ، والدين منه براءٌ، فاتخاذ الطريق وسلوك الطريقة أمرٌ محدثٌ، لم يشرعه رسول الله ﷺ، ولم يأذن فيه، فما ثمَّ إلا طريقته ﷺ، ولم تكن هذه في زمنه، ولا في زمن أصحابه «رضوان الله عليهم»؛ فلم يُعرف عن أحد منهم أنه سلك طريقة، أو أحدث وضعًا جديدًا، كالذي عند الطرقيين، فلم يكونوا - حاشاهم - مبتدعين، ولم تكن لأبي بكر طريقة كذا، ولا لعمر طريقة كذا... وبهذه الحجة رفض رجال «**الإصلاح السَّلَفي**» في الجزائر هذه الطرقية، ولم يعترفوا بنسبتها إلىٰ الدين، فضلًا عن أن تكون هي الدين!

يقول الشيخ أبو يعلىٰ الزواوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد أن ذكر أن هذه «الطرق الصوفية البالغة ستًّا وأربعين [اليوم] فأكثر»، وذكر أن «كل واحدة منها تدعي أنها علىٰ الكتاب والسنة»، وأنها لا يمكنها أن تدعي بالقول أنها «تستطيع أن تبتدع أو تخالف الكتاب والسنة»، يقول الزواوي: «**ثم لننظر الآن هل العمل كذلك مثل القول لا يمكن بحال أن يخالف الكتاب والسنة وما كان عليه محمد ﷺ وأصحابه** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ**؟؟ لم يكن محمد ﷺ وأصحابه... قادريين ولا خلوتيين ولا شاذليين ولا رفاعيين ولا عيساويين إلخ ست وأربعين إنما كانوا مسلمين ملة أبيهم إبراهيم** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ**... وكان طريقهم - وإن شئت قلت: طريقتهم - السنة الصحيحة طريقة محمد ﷺ، بَيْدَ أَنَّهُمْ كانوا مُسْتَغْنِينَ بالطريق عن الطريقة** كما روىٰ عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «خطَّ لنا رسول الله ﷺ يوما خطًّا فقال: **هذا سبيل الله.** وخطَّ عن يمين الخط وعن شماله خطوطًا فقال: **هذه سبل وعلىٰ كل سبيل شيطان يدعو إليه.** ثم تلا قوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[1]»[2].

ويقول الإمام ابن باديس: «- سلوك السلف الصالح «الصحابة والتابعين وأتباع التابعين» تطبيقٌ صحيحٌ لهدي الإسلام.

- فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة»[3].

ويقول الشيخ «العربي التبسي» «١٨٩٥م - ١٩٥٧م»[4] في تقريرِ جمعية العلماء لـ«**رسالة الشرك**»: «الدعوة الإصلاحية التي يقوم بها دعاة الإصلاح الإسلامي في العالم الإسلامي عامة وتقوم بها «جمعية العلماء» في القطر الجزائري خاصة - تتلخص في دعوة المسلمين إلىٰ العلم والعمل بكتاب ربهم وسنة نبيهم والسير علىٰ منهاج سلفهم الصالح في أخلاقهم وعباداتهم القولية والاعتقادية والعملية، **وتطبيق ما هم عليه اليومَ من عقائد وأعمال وآداب علىٰ ما كان في عهد السلف الصالح، فما وافقه عددناه من دين الله فعملنا به واعتبرنا القائم به قائمًا بدين الله، وما لم يكن معروفًا في عهد الصحابة عددناه ليس من دين الله، ولا علينا فيمن أحدثه أو عمل به، فالدين حجة علىٰ كل أحد، وليس عمل أحد حجة علىٰ الدين**»[5].

---

(١) **انظر تخريجه في**: «ظلال الجنة في تخريج السنّة» للألباني (رقم: ١٧)، و«الاعتصام» للشاطبي، تحقيق مشهور بن حسن (١/ ٧٧ - ٧٨).

(٢) **مقالة**: (توحيد التربية والتعليم والرجوع إلىٰ مذهب السلف)، «الشهاب»، العدد (٥٤)، (ص: ٢ - ٣)، (٢/ ٣٢٤ - ٣٢٥).

(٣) «آثار الإمام ابن باديس» (٥/ ١٥٤).

(٤) **انظر ترجمته في**: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ١٩ - ٢٣) للحسن فضلاء.

(٥) «رسالة الشرك» (ص: ٦).

- وها هو الشيخ «العربي التبسي» يُجوِّدُ مقالات في «**بدعة الطرائق في الإسلام**»، وكان منهجه في هذه المقالات هو نفسُهُ ما أعلن عنه منهجًا لجمعية العلماء، وهو أحدُ رجالها،

فقال: «سأجعل كل حجة من حجج الطرائق التي اشتهرت بها، وذاعت بيننا، منفردة ببحث **وأقيسها بعصر السلف. فإن وجد لها أصل بينهم قبلناها وعملنا بها، وعزّزناها. وما لم نجد له أصلًا في أيامهم، ولا عُرِفَ بينهم، اعتقدنا «أنه» بدعةٌ محدثةٌ، مشمولةٌ بقوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»**[1]**، ولْتُرَدّ ومن نصرها كان له من الوزر مثل أوزار من أَحْدَثَهَا، وكان في أمره متبعًا غير سبيل المؤمنين، وآخذًا بغير هدي محمد ﷺ، وليس بعد هدي محمد ﷺ إلَّا الضلال**» اهـ[2].

وقد قرَّظَ الشيخُ ابن باديس في مجلته: «الشهاب» مقالات: «التبسي»؛ فقال:

«**ش**: لقدْ جوَّد الأستاذ العربي تجويدًا بديعًا في طريقة استدلاله علىٰ بدعة الطرائق في الإسلام، وأبانَ بالبراهين السَّاطعة منافاتها لما كان عليه السَّلف الصالحون، ولم يَبْقَ بعد ذلك إلَّا استماع مَنْ هداهُ الله وعناد مَنْ أبىٰ. ﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٤٦﴾ [النور: ٤٦]» اهـ[3].

وبناءً علىٰ ما تقدم: سلوك طريقة من هذه الطرق التي تنتسب إلىٰ التصوف، لم يكن معروفًا في عهد الصحابة، فسلوكها - إذًا - ليس من دين الله في شيءٍ، وهي

(١) رواه البخاري (رقم: ٢٦٩٧)، ومسلمٌ (رقم: ١٧١٨).

(٢) «الشهاب»، العدد (١٦٦)، (ص: ٥)، ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤٧هـ/ ٤ أكتوبر ١٩٢٨م.

(٣) «الشهاب»، العدد (١٦٩)، (ص: ٦)، ١٢ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ/ ٢٥ أكتوبر ١٩٢٨م.

مردودةٌ؛ و«من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[(١)]، و«من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[(٢)].

وقد عَرَّفَ ابنُ باديسٍ البدعةَ، بقوله: «ما يأتيه الناس علىٰ أنه من الدين وليس منه فهو البدعة - قولًا كانت أو عملًا أو اعتقادًا - وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار...»[(٣)]، وبقوله في موضعٍ آخر: «البدعة كل ما أحدث علىٰ أنه عبادة وقربة، ولم يثبت عن النبي ﷺ فعله، وكل بدعة ضلالة»، ثم قال بعد ذلك:

«- الأوضاعُ الطرقية بدعةٌ لم يعرفها السلف»[(٤)] اهـ.

وعرَّفها الشيخُ «مبارك الميلي» بقوله: «معلومٌ أن البدعة هي إحداث ما ليس من الدين في الدين، وقد قال من شهد له ربُّهُ بكمال التبليغ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[(٥)]...»[(٦)].

- ويقول الشيخُ «الطيب العقبي» «١٨٩٠م - ١٩٦٠م»[(٧)] في مقالته: «يقولون

---

(١) رواه مسلمٌ (رقم: ١٧١٨).

(٢) رواه البخاري (رقم: ٢٦٩٧)، ومسلمٌ (رقم: ١٧١٨).

(٣) «الشهاب»، العدد (١٢٨)، (ص: ١٤).

(٤) «البصائر»، العدد (٧١)، ربيع الثاني ١٣٥٦هـ، ١٨ جوان ١٩٣٧م/ «آثار ابن باديس» (٥/ ١٥٤ - ١٥٥).

(٥) رواه البخاري (رقم: ٢٦٩٧)، ومسلمٌ (رقم: ١٧١٨).

(٦) «المنتقد»، العدد (١٤)، ١٢ ربيع الأول ١٣٤٤هـ، موافق ١ أكتوبر ١٩٢٥م، مقالة: (المصلحون والمرجفون).

(٧) **انظر ترجمته في**: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ١٤ - ١٨) للحسن فضلاء، ومقال: (الشيخ الطيب العقبي، خطيب السلفيين وشاعرهم)، أعدّه: سمير سمراد، نُشر في مجلة «الإصلاح»، =

وأقول»: «لا طريقة ولا حقيقة ولا شريعة إلا ما كان عليه محمد وأصحابه الكرام، فهم خواص الخواص فسيروا بسيرهم تكونوا من الصادقين، وإلا فأنتم - والحالة هذه - تنسبون إليهم النقص، وتحطون من أقدارهم، وترون أنفسكم سبقتم إلىٰ ما قصروا هم عنه، واهتديتم إلىٰ ما لم يهتدوا إليه هم، ونلتم المقامات العالية والمراتب الجليلة التي ما نالوها هم، ولا جاء من أقوالهم عند وصولهم إليها ما جاءنا من مشايخكم، وكل أقوالهم المأثورة المحفوظة لديكم والتي تقدمون الاحتجاج بها علىٰ كل شيء، فقد قلتم غير ما قالوه، وفعلتم خلاف ما فعلوه، ومع ذلك تدعون السلوك والوصول وتزعمون أنكم محقّون.

والنبي ﷺ يقول لهم: «**تركتكم علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يضلُّ من سلكها**»[1]، فهل سلكها الصحابة من بعده والتابعون، أم أنتم وحدكم السالكون؟؟ وهل هم أهدىٰ منكم سبيلًا أم أنتم وحدكم الهادون المهديّون؟... فماذا عسىٰ تقولون بعد هذا المقال، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟» اهـ[2].

الافتراق الطرقي:

يقول الإمام الإبراهيمي «سنة: ١٩٢٨م»: «**نحن في فوضىٰ دينيَّة لا يُدْرَكُ لها غَوْرٌ، ومن كتم داءه قتله، ونهجُ السلامة واضحٌ، وما هو إلَّا الرجوع إلىٰ الحق والخضوع لسلطانه، وما الحقُّ إلَّا ما كان عليه سلفنا تحققًا واتصافًا ثم تبليغًا**

=

العدد الثالث، جمادىٰ الأولىٰ/ جمادىٰ الآخرة ١٤٢٨هـ، الموافق لـ: ماي، جوان ٢٠٠٧م، (ص: ٦٥ - ٧٣).

(١) تقدَّمَ تخريجه، بلفظٍ مقاربٍ، ولفظة: «المحجة»، لمْ تردْ في الرواية!

(٢) الشهاب، العدد(١٦)، (ص١٨-١٩)، ١٢ شعبان ١٣٤٤هـ، ٢٥ فيفري ١٩٢٦م.

وإرشادًا... «الكتاب والسنة منهما المبدأ، وإليهما المرجع»...!

قامت علينا الحجة بقول كتاب الله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣] الآية. فخالفناه، واتبعنا السبل، فتفرقت بنا عن سبيل الله... وبقوله: ﴿أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣]. وتبرأ منّا نبيُّنا كما علّمه الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٥٩]... إن الباحثين في أحوال الإسلام وبنيه، والمنقِّبِينَ عن عللهم الاجتماعية كانوا يحصرون أسباب انحطاطهم بعد ذلك الصعود، وذلّهم بعد تلك العزّة القعساء... في سببٍ واحدٍ وهو ما نحن فيه:

خلافٌ في الدين، ومكابرة في اليقين، وأهواءٌ مطاعة علىٰ غير بيِّنَة ولا هدىٰ، ولا كتاب منير...!

وإن الذي زاد الطين بلَّة، ومسافة التفريق اتساعًا - هو اختلافُ الطرق وتصدُّر الجهلاء لنشرها... وما هي إلّا وسائل للتفريق، ومعاوِلُ لهدم الوحدة التي وحَّدَنَا بها ديننا، وامتنّ بها علينا ربُّنا بقوله: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ [آل عمران: ١٠٣] الآية. وقد استحكم هذا الداء في النفوس، واستعصىٰ علىٰ العلماء المصلحين منّا علاجه... وإنَّ الداء العضال والبلية الصماء: اعتقاد العامة منَّا والخاصة كذلك إلّا القليل - أنّ ما هم عليه هو الدين، وما هو من الدين في شيء... وإنّما هي رسومٌ فارغة وقشورٌ لا تسدُّ فراغًا، ولا تبرئ علّة، ولا تنفع غلّة...» اهـ[1].

---

(١) من تقريظ الشيخ الإبراهيمي لرسالة الشيخ السعيد أبهلول الورثلاني: «في الرد علىٰ العوام القائلين بوجوب تلقين الأوراد علىٰ الكافة...»، انظر: «الشيخ السعيد أبهلول الورثلاني في مجموعة من رسائله ومجالسه وفتاويه»، جمع وتصحيح وتعليق: ولده: أ: محمد الطاهر فضلاء (ص: ١٦٨ - ١٦٩).

- **ويقول الدكتور تقي الدين الهلالي**[١]: «أصحاب الطرائق القِدَد، الذين

(١) هو: محمد تقي بن عبد القادر الهلالي الفيلالي المغربي، ولد في آخر سنة (١٣١١هـ) ببلاده «تافيلالت» (أرض سجلماسة = القسم الشرقي الجنوبي للمملكة المغربية)، سافر إلىٰ الجزائر لطلب الرزق، وأقام بقبائل (احميان) معلمًا لأولادهم القرآن، واستقر بمدينة (المشرية) بعد أن استجلب عائلته من المغرب. وفيها كوّن أول أسرة، ورُزق من زوجته الجزائرية بنتًا. كان مقدّمًا في الطريقة التجانية، وأعانه التجانيون من أهل الجزائر للسفر إلىٰ المشرق لطلب العلم، وكان قد خرج من الطريقة التجانية وهو بين أظهرهم، وذلك عند لقائه في «فاس» بشيخ السلفيين بالمغرب الشيخ محمد بلعربي العلوي، ولم يُعلمهم بذلك لخطورة الوضع في ذلك الحين ولصغر سنّه. لم تنقطع صلته بأهل الجزائر وهو بالمشرق، فقد راسلهم ينكر عليهم الطريقة، وراسل صاحبَ «الشهاب»، مُبينًا عن ابتهاجه بمجلته (مرآة الإصلاح والمصلحين)، وتأييده له ولإخوانه المصلحين، وسعيه لنشر «الشهاب» بالحجاز. هذا في أول مراسلةٍ له، ثم أرسل لهم بمقالاتٍ وبحوثٍ عظيمةِ النفع، دعّم بها الدعوة الإصلاحية في الجزائر، وكان عونًا لهم في حربهم ضدَّ الطرقيين المضلّلين، كما لم يألُ جهدًا - وهو بالمشرق وبالهند - في الإشادة بجهاد المصلحين وجهودهم التي تكلّلت بتأسيس «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين». قال محرّرُ جريدة «الصراط» [العدد (٦)، ٤ رجب ١٣٥٢هـ]: (للغرب الإفريقي ابن عالمٌ بارٌّ... أنجبه المغرب الأقصىٰ. هو العلّامة الأستاذ محمد تقي الدين الهلالي المدرس بالهند، لهذا الأستاذ شهرة علمية إصلاحية عظيمة بالشرق ومقالات رنَّانَة في صحفه وهو - علىٰ بُعْده عن الغرب الإفريقي - لا يَفْتَرُ عن العناية به والتتبّع لأحواله والكتابة عنه، وهاهو اليوم قد أتحفنا بهذا المقال النّفيس الذي نشرناه فيما يلي شاكرين لفضيلته عنايته وفضله) اهـ. حصّل شهادة (الدكتوراة) في الأدب (بدرجة حسن) في صيف سنة (١٩٤٠م) من جامعة برلين (ألمانيا). عاد إلىٰ بلده المغرب الأقصىٰ، وانتصب للدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، وبعد استقلال الجزائر، زارها أكثر من مرّة؛ زار إخوانه وأحبابه في «المشرية»، مُعربًا بتلك الزيارات والاجتماعات الحميميّة، عن تعلّقه =

ينتسبون إلىٰ التصوف في هذا الزمان، فإنهم يخالفون ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه من وجوه: الوجه الأول: إحداث التفريق بين المسلمين... فهل أحدث الصحابة طرائق في الدين فكانت هناك طريقة بكرية وطريقة عمرية، وطريقة عثمانية، وطريقة علوية، وطريقة جابرية، وطريقة مسعودية، إلخ - مَعَاذَ الله أن يتفرق أصحاب رسول الله ﷺ في دينهم - الثاني: أنهم مبتدعون، وكل بدعة ضلالة؛ فكل مبتدع ضال...»[(١)]،

ويقول: «ومن الضلال إحداث المذاهب والتعصب لها... فيجب علىٰ المسلمين في كل زمان ومكان أن يكونوا في دين الله كما كان أصحاب رسول الله ﷺ، **لم تكن عندهم مذاهب ولا طرق** ولا فرق ولا نحل، فلو كان التفرق حقًّا لكان أصحاب رسول الله ﷺ علىٰ مذاهب بكرية، وعمرية، وعثمانية، وعلوية، حاشاهم من ذلك، وهم خير القرون، نسأل الله أن يجعلنا ممن اتبعهم بإحسان»[(٢)] اهـ.

- **ويقول الشيخ «الطيب العقبي» في مقالته «يقولون وأقول»**: «... يقول أهل كل طريق: إن طريقتهم هي سفينة «نوح» من ركبها سلم ونجا، ومن لم يدخل في طريقتهم هلك وغوىٰ!... وأقول: إني قد سألتهم فرادىٰ ومجتمعين فألفيتهم **مع**

=

بأهل الجزائر، واعترافه بأفضالهم عليه. توفي - رحمه الله تعالىٰ - بالدار البيضاء (المغرب) سنة: (١٤٠٧هـ =١٩٨٧م). انظر: الترجمة الضافية التي كتبتُها عنه في مقدمة كتابي: «الطرائق الصوفية وآثارها في بلاد الحجاز والمغرب»، وهو: مجموعٌ فيه مِنْ مقالات: العلَّامة الجليل: الدكتور محمد تقي الدين بن عبد القادر الهلالي الفيلالي المغربي، يسَّر الله تعالىٰ إخراجهُ.

(١) «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» (٢/ ١٣ - ١٤).

(٢) «سبيل الرشاد في هدي خير العباد» (٢/ ١١٨).

شدة تباعد بعضهم عن بعض، وتضليل كل حزب للآخر، وطعن الفريق هذا في الثاني، وطعن الثالث فيهما معًا، وحكم الكل منهم علىٰ من لم يكن من شيعته بالكفر والمروق من الدين - إن كان متعصبًا -، أو الزيغ والضلال - إن كان معتدلًا -، وقلَّ أن يوجد الاعتدال فيهم. سألتهم أفرادًا وجماعة: ما قولكم في الأخذ بطريق «محمد»ﷺ واتباع سنته بلا زيادة ولا نقص؟ فقالوا كلهم: تلك هي خير الطرق، والآخذ بها علىٰ الوجه المذكور هو الرابح في تجارته والعامل بواجب ما خلق له. سألتهم: هل ينجو سالك هذه الطريق، وهل هو من الواصلين المقربين عند الله، وهل اتباعُ هذه الطريقة هو المطلوبُ من المكلف عقلًا وشرعًا؟؟؟ فقالوا كلهم أجمعون أَكْتَعُون أَبْتَعُون أَبْصَعُون: نعم! نعم! نعم! فقلت لهم: إذًا أنا محمدي، سني في طريقتي ومذهبي غير بدعي، ولست من طرقكم المخالفة لعمل «محمد» وما كان عليه السلف الصالح في شيء... فهل الحق معي في رفض تلك الطرق كلها - ما عدا الطريقة المحمدية - أم الحق مع جماعة الطرقيين؟؟»[1].

- **ويقول الإمام الإبراهيمي:** «والحقيقة أن الطرقيين أرادوا أن يصبغوا طرقهم بالقدسية الدينيَّة فانتحلوا لها هذه الأباطيل وأعطوها خصائص الدين كلها. ألم تر أنهم يعدون الخروج من طريقة ولو إلىٰ طريقة أخرىٰ كالارتداد عن الدين يموت فاعله علىٰ سوء الخاتمة قبّحهم الله؟ فما هو إلَّا خروجٌ من ضلالة إمّا إلىٰ هدىٰ وإمّا إلىٰ ضلالة أشنع...»[2].

ويقول: «وإنك لتسمعهم يقولون الأخوة والإخوان فاعلم أنهم لا يريدون

---

(١) «الشهاب»، العدد: (١١٨) (ص ١٨-١٩).

(٢) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٧٦).

أخوة الإسلام العامة ولا يرعون من حقوقها حقًّا، وإنما يريدون أخوة الشيخ وأخوة الطريق، وكل ما يجب عليك من حق فهو لأخيك في الطريق - أعاذك الله منها -. وأن هذه الأخوة القاطعة تفرض عليهم أن يبغضوا كل من لم يتصل معهم بحبل الشيخ، وينابذوه ولا يجتمعوا معه ولو في العبادات الشرعية كالصلاة وقراءة القرآن، أو البدعية كحلقهم الخصوصية، بل يبلغ الغلو ببعضهم «كالتيجانية» أن لا يصلوا خلفه ولا يصاهروه»[(١)].

وهذه صورةٌ واقعيَّة لما حدثَ ونجمَ عن هذا «**الافتراق الطُّرقي**» في الوطن الجزائري:

- **يقول الإمام ابن باديس عن:** «سوف قبل الإصلاح وبعده»[(٢)]: «عرف أهل سوف من قديم بالتديّن والتشدّد في العقيدة والتّفاني فيها. وقد شطرتهم الطريقة التيجانية والطريقة القادرية إلىٰ شطرين بلغت العداوة والبغضاء ما بينهما مبلغها، حتىٰ انعدمت المصاهرات بينهما أو كادت، وحتىٰ صار من كان من فريق لا يصلي خلف من كان من الفريق الآخر. وفي بلدة «الرقيبة» - إلىٰ اليوم - [أي: سنة: ١٩٣٨م] مسجد قُسِمَ بشطرين، وضُرِبَ فيه بحائط بين المصلين، حتىٰ أنه ليسمع كلا الفريقين إمام الآخر، فلا تسأل عن التخليط والتشويش. هذا وأكثر من هذا يقع بين أولئك المؤمنين المخلصين في إيمانهم، الجاهلين بحقيقة ما هم به مؤمنون، وشيوخهم المدعون فيهم مقامات أكابر عباد الله الصالحين يرون ذلك ولا يغيّرونه، بل يؤكّدونه بما يبثُّونه من الدعاوىٰ المتغالية في فضائل طريقتهم، ومن

---

(١) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٧٢).

(٢) «آثار الإمام ابن باديس» (٥/ ١٥٩).

ينتسبون إليه، وما تتضمَّنُهُ تلك الدعاوىٰ من الحطّ من الفريق الآخر وزيغِهِ وضلاله، فيزدادُ أولئك الأتباع الجهال المغرورون المخدوعون غلوًّا في طريقتهم، ومقتًا للطريقة الأخرىٰ، ويزدادُ الجفاء والقطيعة، وما ينشأُ من الجفاء والقطيعة بين أولئك المساكين من الجانبين...» اهـ.

ويقول الإمام مخاطبًا شيوخ الطرق، الذين «دَعَوا إلىٰ طرقهم المتعدِّدة المتشعِّبة، كلٌّ يرىٰ طريقته علىٰ الحق وغيرها علىٰ الباطل، فأحدثوا العداوة والفرقة بين المسلمين، وأنسوهم الوحدة الإسلامية التي تجمعهم»: «يا أيها الذاهبون في سبل متعدّدة متباينة، اعدلوا عن بنيات الطريق، واسلكوا الجادّة، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، فإنكم ما دمتم علىٰ هذه النِّسَب المتباينة: يضلِّلُ بعضكم بعضًا وينفِّر بعضكم من بعض؛ لا يرجىٰ لكم اتفاق ولا اتحاد، **فارجعوا إلىٰ اسم الإسلام الذي يجمعنا، وطريقه الوحيد المستقيم الذي كان عليه محمد وأصحابه، والصالحون أسلافنا**، وكتابه النور والتذكرة والتبصرة الذي نجتمع عليه ونتفق علىٰ الاهتداء به ويطمئن قلب كل مؤمن إليه. هذه دعوتنا إلىٰ إخواننا، هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبًا، وذهبوا فيه طرائق قِدَدًا» اهـ(١).

- وسُئِلَ الشيخُ «الطيّب العقبي»؛ سأله «فرنسي كبير ذو مجلة شهيرة»: «- لماذا تحاربون الطرق؟»، فأجابه بقوله: «**نحارب الطرق؛ لأنه لا طرق في دين الإسلام، وإنما هو دينٌ واحدٌ وطريقٌ جامعةٌ**» اهـ(٢).

---

(١) «آثار الإمام ابن باديس» (٥/ ٧٧ - ٧٨)/ «الشهاب»، العدد (٩٩)، ٢ ذي الحجة ١٣٤٥هـ، (٢) جوان ١٩٢٧م.

(٢) نشره ابن باديس في مجلته «الشهاب» (ج٥، م١١، ص: ٢٨٦ - ٢٨٨)، تحت عنوان: (أجوبة حكيمة).

بِدْعَةُ خِرْقَةِ الصوفية، أوْ: إِبْطَالُ سَنَدِ الطُّرُقِيَّة:

- «**الخرقة**: لباس يخلعه الشيخ علىٰ المريد بعد تلقي العهد...

والخرقة رمز للرباط الوثيق بين المريد وشيخه، وإعلان من المريد أنه قد فوَّض أمره إليه، وأنه قد حكَّم الشيخ في نفسه، وأذعن طائعًا مختارًا لأمره ونهيه»[(١)].

يقول الإمام الإبراهيمي: «... ولما نقضنا لهم هذه الدعوىٰ تَنَزَّلُوا فزعموا أن لها حبلًا واصلًا بالدين وسندًا متَّصلًا بالسلف، ولما بيَّنَّا لهم أن الحبل مقطوع وأنَّ السَّنَدَ منقطعٌ...» اهـ[(٢)].

وبيانُ ذلك:

- ما ذكره أحد تلاميذ الإمام ابن باديس «رحمهما الله» [**هو الشيخ بلقاسم بن ارواق**]، تعليقًا علىٰ الحديث الذي رواه مسلمٌ[(٣)] عن عامر بن واثلة قال: كنت عند علي بن أبي طالب فأتاه رجل فقال: ما كان النبي ﷺ يُسِرُّ إليك؟ قال: فغضب وقال: ما كان النبي ﷺ يُسِرُّ إليَّ شيئًا يكتمه الناس غير أنه قد حدثني بكلمات أربع قال: فقال: ما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: قال: **لعن الله من ذبح لغير الله...**»، قال: **«وفي هذا إبطالٌ لما يَدَّعِيهِ مُتَصَوِّفُونَا مِنْ أَنَّ مُبْتَدَعَاتِهِمْ تَتَّصِلُ سِلْسِلَتُهَا لصاحب «الخِرْقَة» يعني علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَرَدَّ هذا الحديثُ تُرَّهَاتِهِمْ فبطل ما**

(١) «عبد الرحمن الوكيل وقضايا التصوف» إعداد: فتحي أمين عثمان (ص: ٢٨ - ٢٩).

(٢) «آثار الإمام الإبراهيمي» (١/ ١٧٤).

(٣) (كتاب الأضاحي: باب تحريم الذبح لغير الله تعالىٰ ولعن فاعله)، (رقم: ١٩٧٨ - شرح النووي).

كانوا يؤفكون»[(١)] اهـ.

- وقال الشيخ «مبارك الميلي» في «**رسالة الشرك ومظاهره**» «لباس الخرقة وإسناد الطريقة»«ص: ٢٦٧»: «واتخذ أولئك الصوفية شعارهم لباس الخرقة وإلباسها. وقالوا: إن الحسن البصري لبسها من علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ. وتخصيص علي بشيء في الدين هو من بدع الرافضة. وقد تقدم... غضبه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ علىٰ من اعتقد فيه أنه ﷺ أسرَّ إليه شيئًا وإنكاره عليه، وقوله: **ما كان** ﷺ **يُسِرُّ إليَّ بشيء يكتمه الناس**[(٢)]. قال في «**تمييز الطيب من الخبيث**»[(٣)]: «حديث «لبس الخرقة الصوفية» وكون الحسن البصري لبسها من علي، قال ابن دِحْيَة وابن الصلاح: إنها[(٤)] باطل. ولذا قال ابن حجر: إنه ليس في شيء من طرقها ما يثبت، **ولم يَرِدْ في خبر صحيح ولا حسن ولا ضعيف أنَّ النبيَّ ﷺ أَلْبَسَ الخرقة علىٰ الصورة المتعارفة بين الصوفية لأحدٍ من أصحابه، ولا أمر أحدًا من أصحابه بفعل ذلك، وكل ما روي**[(٥)] **في ذلك**

---

(١) **انظر**: «الزردة رأس كل شرٍّ، فاجتنبوها أيها المسلمون!» (ص: ١٢٩) للشيخ بلقاسم بن ارواق، ومعه: «الشيخ بلقاسم بن ارواق، سيرته ومنهجه الإصلاحي»، أعدّه: أبو محمد سمير سمراد.

(٢) تقدَّم تخريجُهُ.

(٣) «تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور علىٰ ألسنة الناس من الحديث» (ص: ١٤٥)، (حديث رقم: ١٠٦١) لعبد الرحمن بن علي المعروف بابن الدِّيبع (ت: ٩٤٤هـ)، ط: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م. وانظر: «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة علىٰ الألسنة» (ص: ٣٣٥) للسّخاوي (ت: ٩٠٢هـ).

(٤) في النسخة المُقابَل عليها: [إنَّه].

(٥) في النسخة المُقابَل عليها: [يُروىٰ].

صريحًا باطل[(١)]. **قال: ثم إن من الكذب المفترىٰ قول من قال: إنَّ عليًّا ألبس الخرقة الحسن البصري. فإن أئمة الحديث لم يُثْبِتُوا للحسن مِنْ عليٍّ سماعًا فضلًا عن أن يلبسه الخرقة**» «ص: ١٢٣»[(٢)]، وقد حاول السيوطي في «**الحاوي**»[(٣)] إثبات سماع الحسن من علي. وليس ذلك بأولىٰ من إنكار أئمة الحديث له، ثم هو لا يثبت الدعوىٰ الخاصة التي هي لباس الخرقة. **وما زال الصوفية يَتَفَنَّنُونَ في وضع الإسناد ليربطوا طُرُقَهُمْ بعظماء الزُّهَّاد وإن اشتملت علىٰ ضروب من الضلال والفساد، حتىٰ جاء أخيرًا أحمد بن سالم التيجاني فاختصر الإسناد وادَّعىٰ أنَّه تلقَّىٰ طريقته من خاتم الأنبياء من غير واسطة» اهـ.**

– **ويذكرُ الشيخ «العربي التبسي» في مقدمة: «بدعة الطرائق في الإسلام»**: أنه اجتمع برجلين في بلدة «خنشلة» [من مدن الشرق الجزائري]، يُنَفِّرَانِ الناس «من دعوة المصلحين»، يقول: «فجاذبتهما الحديث في شئون، منها: إعطاء العهود الموجود بيننا من رؤساء الطرائق، وتحديد الأذكار للأمة علىٰ هذا الوجه – **بدعةٌ لا يعرفها السلف ولا يقبلها الشرع**. فزعما أن هذه العهود وما لفَّ لفَّها قد نقلت عن

---

(١) في النسخة المُقابَل عليها: [فباطل].

(٢) وبمثلِ ما قال ابن الديبع، قال محمد الأمير الكبير المالكيّ (ت: ١٢٣٢هـ) في «النخبة البهيّة في الأحاديث المكذوبة علىٰ خير البريّة» (ص: ٨٩)، (رقم: ٢٥٢): («لبس الخرقة المشهورة بين الصوفية» لا أصل له. نصّ عليه جمع من الحفاظ... وقد ألف السيوطي كتابًا سماه «إتحاف الفرقة في لبس الخرقة»، وغاية ما فيه إثبات أن الحسن البصري، سمع من علي، في الجملة، وليس فيه إثبات أن عليًّا ألبس الحسن، ولا أن المصطفىٰ ألبس عليًّا الخرقة علىٰ الصورة المتعارفة بينهم) اهـ.

(٣) **انظر**: «إتحاف الفرقة، برفو الخرقة»، ضمن: «الحاوي للفتاوي» (٢/ ١٩١ – ١٩٥) للسيوطي (ت: ٩١١هـ)، ط: المكتبة العصرية، بيروت.

الحسن البصري، فأجبتهما **بأن من نقل هذا عنه أراه قد كذب عليه**. ومسألة كمسألة العهود وتحديد الأذكار **ووضع الطرائق للأمم - [ليس] بِسِرٍّ من الأسرار حتىٰ يمتاز بها الحسن، ومُحَالٌ أن يفعل شيئًا لم يَتَلَقَّهُ عمَّنْ قبله، ولو فعله من قبله - والمسألة لها خطرها - لنقلت شائعة ذائعة كما هي الآن - وهذه الكتب الصحاح التي عُرِفَ رجالُهَا ومُحِّصَتْ أخبارُهَا لا يوجد فيها ما يصلح أن يكون دليلًا أو شبه دليل** - فلما سُدَّتْ في وجوههما مناهج التضليل انقلبا إلىٰ السِّباب والفظاظة والفحش والإذاية...» اهـ[1].

وتعقيبُنا علىٰ ما ينشر في كتب التصوف من أن الرسول ﷺ ألبس الخرقة لهذا الشيخ، أو ذاك، وأن الخضر فعل مثل ذلك مع بعض الشيوخ، أن نقول: «**أين هذه الطقوس والرسوم في كتاب الله؟ أين مكانها في سيرة رسول الله ﷺ؟ أين خرقة أبي بكر، أو خرقة عمر، أو خرقة عثمان وعلي؟ رضي الله عنهم أجمعين.**

إن الصلة بين خاتم النبيين ﷺ وبين الصحابة هي صلة مسلم - لا يتقي إلا الله - برسول كريم جاء يعلمه هذه التقوىٰ، ويفرضها عليه بأمر الله، أما صلة المريد بالشيخ فهي صلة قائمة علىٰ الصغار والمهانة والمسكنة والعبودية المستسلمة بكل مضارِّها، لهوىٰ سفيه، إنَّ ما يشرعونه هنا يسلب النفسَ إرادتها...»[2].

العلماءُ والطُّرُقِيَّة:

يقول الإمام الإبراهيميُّ: «... قالوا: إن هذه الطرقية مَرَّتْ عليها قرونٌ ولم يُنْكِرْهَا العلماء، فَبَيَّنَّا لَهُمْ أنَّ عدم إنكار العلماء الباطل لا يُصَيِّرُهُ حقًّا، ومرور الزمن

(١) «الشهاب»، العدد (١٦٦)، (ص: ٣)، ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤٧هـ/ ٤ أكتوبر ١٩٢٨م.

(٢) «عبد الرحمن الوكيل وقضايا التصوف» إعداد فتحي أمين عثمان (ص: ٢٨ - ٢٩).

عليه لا يُصَيِّرُهُ حقًّا...» اهـ[(١)].

- ويقول الشيخ مبارك الميلي في «**رسالة الشرك**» «ص: ٥٤»، تحت فصل «الجواب علىٰ المطاعن»: «... لا، لم نأت بشيء جديد في نظر الدين، ولكنه جديد في آذان المستمعين، ومن تقدَّمنا من العلماء بعضهم نكروا مثلنا فطُعن فيهم وحيل بينهم وبين العامة، وبعضهم أَسَرُّوا الإنكار لمن وثقوا بامتثاله، ومنهم من كتم لغلبة يأسه، ومحافظته علىٰ هناء نفسه، ومنهم من لم يكن يدري هذا الشأن، وإنما اشتهر بمسائل الفروع. **ثم العلماء الثقات حجّةٌ فيما يأثرون، لا فيما يفعلون أو يقرُّون. ولا يكون الفعل أو التقرير حجّة إلا من المعصوم.**

فأما تأويل النصوص فأكثره تحريف للكلم عن مواضعه، وغضٌّ من مهابة ظواهرها وعظم موقعها في النفوس، وأما صرف أقوال العامة، وأفعالها إلىٰ غير ما أرادت منها، فتغرير بها وإغراء لها علىٰ الباطل.

وأمَّا ابن تيمية فلم يبتدع ضلالة، وإنما أحيا السنّة، ودعا إلىٰ الهدىٰ، واجتهد في النصح. وليست الدعوة إلىٰ التوحيد بمذهب خاص، ولكنه دين الله العام.

وما جعل العوام يستخفون بما وقعوا فيه من الشرك الجلي إلا الاعتياد، وجبن جل العلماء عن الجهر بالإرشاد، والعادة - كما يقال - «طبيعة ثانية». والإسرار بالعلم إِقْبَارٌ له... وما جعل بعض العلماء ينتصبون للدفاع عن تَدَيُّنِ العامة، إلا مجاراة للعوام والتقرب منهم، ومن مُغرضي الحكام لنيل منصب أو حطام، وهذا ظاهر في هذا الزمان؛ لا يختلف فيه اثنان...» اهـ.

- ويقول في فصل «**الإنكار علىٰ الاحتجاج بسكوت العلماء**» في آخر رسالته

(١) «آثار الإبراهيمي» (١/ ١٧٤).

«ص: ٢٩٥»: «أبعد هذا يحتج محتج لتقرير بدعة بسكوت من يعرفه من العلماء عنها؟ علىٰ أن العلماء العاملين لم يتواطئوا علىٰ السكوت، وقد نقلنا في هذه الرسالة من الأقوال ما تعرف به استمرار الإنكار علىٰ البدع في كل زمان، وأنَّ ما نكرناه علىٰ أهل زماننا نكره مَن قبلنا علىٰ أهل زمانهم، ولم ينفرد بهذه الخطة التقي ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وإن انفرد بالشهرة فيها» اهـ.

وهذا كاتبٌ من شبيبة الإصلاح بالمغرب الأقصىٰ «الرباط»، راسلَ «**الشهاب**»؛ [مرآة الإصلاح والمصلحين، ليس في الجزائر فحسب، بل في الشمال الإفريقي]، ونُشرت مقالته بعنوان: «**لا طرق في الإسلام**»[1]، جاء فيها قولُه: «راقبوا الله أيها العلماء، واسعوا بكامل مجهودكم إلىٰ تنبيه أولئك الغافلين الذين أضلَّتهم فئة المبتدعين، **وقولوا لنا جهرًا علىٰ رءوس الأشهاد بلا خوفٍ ولا وَجَلٍ أنْ لا طرق في الإسلام**. أما كفاكم أنَّ العوام يستدلون بسكوتكم ويدّعون أنّ ما هم فيه أمرٌ ثابتٌ لا يخرج عن أصول الدّين؟» اهـ.

شيوخ الزهد المتقدّمون غير الطرقيّين المتأخّرين[2]:

يقول الإمام الإبراهيمي: «وقلنا لهم: إذا كان سلفكم في الطرقية يعملون مثل أعمالكم؛ فهم مبطلون مثلكم، وإذا كانوا علىٰ المنهاج الشرعي؛ فليسوا بطرقيين، ونحن نعلم من طريق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة أن بعض أصحاب هذه

---

(١) «الشهاب»، العدد (٦٤)، (ص: ١٠ - ١٢)، السنة الثانية، ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤٥هـ، ٢٨ أكتوبر ١٩٢٦م.

(٢) هذا العنوان من وضع الإمام ابن باديس، علىٰ بعض فصول مقالةٍ للشيخ تقي الدين الهلالي رحمهما الله؛ نشرت في مجلة «الشهاب» ، وهو مناسبٌ لما هنا.

الأسماء الدائرة في عالم التصوف والطرق كانوا علىٰ استقامة شرعية وعمل بالسنة ووقوف عند حدود الله. فهم صالحون بالمعنىٰ الشرعي، **ولكن الصلاح لم يأتهم من التصوف أو الطرق وإنما هو نتيجة التدين، وفي مثل هؤلاء الصالحين الشرعيين إنما نختلف في الأسماء؛ فنحن نسميهم صالحي المؤمنين وهم يسمونهم صوفية وأصحاب طرق**، فيا ويلهم إن طريقة الإسلام واحدة، فما حاجة المسلمين إلىٰ طرق كثيرة» اهـ(١).

- **ويقول الشيخ «العربي التبسي»**: «... والصوفية الذين شهد لهم أهل العلم بالاستقامة إنما بنوا طريقتهم علىٰ التأسي به ﷺ في جميع أمورهم، وليس في السنة ما يدل علىٰ مشروعية هذه العهود [الطرقية] الجارية بيننا، **فمن أدخلها [عليهم] أو نسبها إليهم ككل هذه الشرور التي يتقلب فيها أبناء الزوايا وأذنابهم فقد جنىٰ عليهم** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ **شَرَّ جِنَايَةٍ، وأدخل في طريقتهم ما تبرءوا منه من الابتداع...» اهـ**(٢).

وإذا سلَّمنا جدلًا أن الانتساب إلىٰ طريقة من الطرق الصوفية خلا من تلكم **المفاسد والآثار السيئة** في المجتمع، فإنه يبقىٰ شرًّا؛ لكونه بدعةً، لا ينفك وصف البدعة عنها وعن المنخرط فيها، وحقيقة الانتساب إلىٰ الطريقة في حدِّ ذاتها: مفاسدُ علىٰ مفاسد، وبدعٌ متصلةٌ ببدع، إن غضضنا الطرف عن تبعاتها وآثارها.

بيانُ ذلك:

إخوان شيخ الطريقة، لا إخوان الرسول ﷺ!:

إن أيَّ طريقةٍ من هذه الطرائق: إنَّما تعني الانتساب إلىٰ شيخٍ.

---

(١) «آثار الإبراهيمي» (١/ ١٧٤ - ١٧٥).

(٢) «الشهاب»، العدد (١٦٨)، (ص: ٢ - ٥)، ٠٥ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ، ١٨ أكتوبر ١٩٢٨م.

يقول الإمام الإبراهيمي: «وإنك لتسمعهم يقولون: الأخوة والإخوان. فاعلم أنهم لا يريدون أُخُوَّةَ الإسلام العامة ولا يرعون من حقوقها حقًّا، وإنما يريدون أُخُوَّة الشيخ وأُخُوَّةَ الطريق. وكلّ ما يجب عليك من حق فهو لأخيك في الطريق أعاذك الله منها. وأن هذه الأخوة القاطعة تفرض عليهم أن يبغضوا كل من لم يتصل معهم بحبل الشيخ، وينابذوه ولا يجتمعون معه ولو في العبادات الشرعية كالصلاة وقراءة القرآن، أو البدعية كحِلَقِهِم الخصوصية...» اهـ[(١)].

ويقول الإمام ابن باديس عند شرح حديث: «وددتُ أني قد رأيتُ إخواننا»، «فقالوا: يا رسول الله! ألسنا إخوانك؟ قال: كلَّا، أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بَعْدُ...»[(٢)]، تحت عنوان: «براءةُ رسول الله ﷺ ممَّن غيَّر دينه»: «...الفائدة الثانية: تسميته ﷺ لمن لم يره من أمته بإخوانه، فنحن من إخوانه ﷺ وكفىٰ بهذه النسبة شرفًا، فما علىٰ المسلم إلا أن يعمل بسنة نبيه ﷺ حتىٰ تتحقق فيه هذه النسبة، وليس من الأدب ولا من الإيمان أن يستضعف المسلم هذه النسبة ويحاول تقويتها بنسبةٍ أخرىٰ إلىٰ شخص آخر ككونه خُوني فلان أو حبيبه أو درويشه»[(٣)].

ويقول: «...إنَّ المصلحين ما تصدَّوْا لمقاومة الطرقية إلَّا بعد أن رأوا رؤساءها قد قعدوا للمسلمين علىٰ رأس كل طريق للخير يصدُّونهم عنه، قعدوا علىٰ طريق التوحيد... قعدوا علىٰ طريق الاتِّحاد؛ فإذا دَعَوْنَا الناس إلىٰ أُخُوَّةِ الإسلام، أَبَوْا إلا

---

(١) «آثار الإبراهيمي» (١/ ١٧٢).

(٢) رواه مالكٌ في «الموطإ» (رقم: ٥٧ – ط: عرموش)، ومسلمٌ (رقم: ٢٤٩).

(٣) «آثار ابن باديس» (٢/ ١٩٨ – ١٩٩).

أُخُوَّةَ الشيخ والتَّعصُّب لنسبة الشيخ والانحياز إلىٰ جماعة الشيخ فصيَّرُوا الناس طرائِقَ قِدَدًا وجعلوا تحت كلِّ طريقٍ فِرَقًا...» إلىٰ أن يقول: «فبعد هذا البيان لا نظنُّ أحدًا من أهل العلم والدين والنُّصح للإسلام والمسلمين يتردَّدُ في استصواب ما سلكه المصلحون من مقاومة الخرافات الطرائقية وضلالاتها ومضارِّها»[(١)].

أركان النظام الطرقي:

زيادةً علىٰ كون الطريقة تعني:

١- الانتسابَ إلىٰ شيخٍ.

فإنها كذلك تعني:

٢- أخذ العهد وعقد «إعطاء» البيعة.

يقول الشيخ العربي التبسي في «بدعة الطرائق في الإسلام» «ص: ٤٣»: «...ما حدثنا مؤرخ، ولا قصَّ علينا أثري، ولا حدَّثنا محدث بأن السلف كانوا يعطون العهود ويُلَقِّنُونَ الأتباع، وكيف يفعلون عبادةً من تلقاء أنفسهم...»[(٢)]، ويقول: «...عهود أشياخ الطرائق ضلالة محدثة لم يفعلها صاحب الملة ولا سلف الأمة» اهـ[(٣)].

٣- وكلٌّ من الانتساب وأخذ العهد، يعني: الخضوع للشيخ وإطاعَتَهُ في تحديد الأذكار، واختراع صيغ لها، وتحديد مواقيتها ووضع ثوابٍ لها.

يقول الشيخ العربي التبسي في «بدعة الطرائق في الإسلام»: «**«بدعة تحديد**

---

(١) **مقالة**: (الأستاذ محب الدين الخطيب ينزل لمقاومة الطرقية والطرقيّين)، «الشهاب»: (ج٥، م١٠)، محرم ١٣٥٣هـ، أفريل ١٩٣٤م، (ص: ٢١٠ - ٢١٢).

(٢) «الشهاب»، العدد (١٦٨)، (ص: ٣)، ٠٥ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ/ ١٨ أكتوبر ١٩٢٨م.

(٣) «الشهاب»، العدد (١٦٨)، (ص: ٤)، ٠٥ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ/ ١٨ أكتوبر ١٩٢٨م.

الأذكار لأتباعهم»: من البَيِّن لجميع من عرف الطرائق التي غصَّتْ بها الجزائر أنها اشتركت في أمور وامتازت كل واحدة بخواص تجعلها منفصلة عن البقية تستحق بها اسم طريقة فلان. **وقد وضعوا طرائقهم كالشرع الموضوع المُتَّبَع** وبنوا هذه الأذكار علىٰ أوضاع وهيئات، وألحقوا بها أدعية أحدثها من أَسَّسَ الطريقة، ومن الشائع الذائع أن هذه الأذكار يعطيها رؤساء الطرائق أو من يقيمونه ويسمىٰ بأخذ الورد أو رفع السبحة، ويعينون أعدادها وصيغها وأوقاتها وما يرتؤونه من آدابها، **ونحن نعرض عملهم هذا ونقيسه بالهدي النبوي وعمل السلف فذلك الدين، وما لم يعرف في هذه الأيام بعموم أو خصوص فليس من الدين، وما دام ليس من الدين فإنكاره قربة والاعتراف به بدعة**»، إلىٰ أن قال: «وما علمنا أن رسول الله ﷺ مدّة عمره حدّد الأذكار لأحدٍ من أصحابه تحديدًا يماثل تحديد الطرقيين علىٰ اختلاف أسمائهم، ولا نقل عن أحدٍ من السلف أنه حدَّدَ الأذكار لغيره ممن عاصره، فضلًا عن أن يجعله ذكرًا شائعًا ذائعًا يعرف بذكره طريقة فلان... **وإن الخير في اتباع من سلف وقد تركوا التحديد والتوقيت فالبدعة والشرُّ في التحديد والتوقيت، وهو ما لم تتركه طريقةٌ من الطرائق**» اهـ[1].

فهذه شرورٌ في الدين، هي أركان الوضع الطرقي[2] - إن صحَّ التعبير - ، وبها وعليها يقوم هذا النظامُ المبتدَع...

---

(١) «الشهاب»، العدد (١٦٦)، (ص: ٥ - ٦)، ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤٧هـ، ٠٤ أكتوبر ١٩٢٨م.

(٢) ظهر من خلال النُّقُول السالفة عن الشيخ «العربي التبسي»: (معنىٰ الطريقة الصوفية)، وأركان نظامها وانظر - للمزيد -: كتاب «الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة» (ص: ٥٤٠) لعبد الرحمن عبد الخالق، وكتاب «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» (١/ ٣٤٢) لأحمد لوح.

فهذه الشرور مجتمعةً أوجدت ما يسمىٰ: الطريقة! ولعله قد بدا لك شيءٌ في حكم الطريقة، ولاح لك أن حقها الإعدام، لا زعمُ إصلاحها!!، فلا صلاحَ مع وجودها.

ونقولُ لمن يذهب اليومَ إلىٰ إقرار هذه الطرق، ويحاول زعمًا إصلاحها، بنفي تلك المساوئ عن المخلصين من شيوخها وأتباعها... أيا هؤلاء: إن «**الإصلاح السَّلفي**» - الذي رفعه الإمامان: ابن باديس والإبراهيمي وإخوانهما - ليقضي بأن «**لا طرقية في الإسلام**»؛ فليس في ديننا «**طريقة كذا وطريقة كذا**»!، وليس في ديننا «إعطاء عهد أو بيعة»، فهذا لا يكون إلا لنبيٍّ، وليس في ديننا أن الشيخ يلقن الورد والذكر لمريديه، ويحدد لهم الصيغة والعدد والمواقيت، وأتباع الطرق كيفما كانوا قد اتخذوا شيوخهم «أنبياء يشرِّعون لهم» من الدين، ما لم يأذن به الله!، فأي إصلاح مع إقرار هذه الطرق المختلفة المتباينة، «**ونحن نقول لهم: إنَّ الإسلام لا يعرف طريقة كذا ولا طريقة كذا**»[1].

ماذا لوْ ظهرتْ هذه الطرقُ في زمن الصحابة؟!:

- **يقول الدكتور تقي الدين الهلالي**: «إن العبادة في الإسلام محدودة الجوهر والصفات، أما أعيانها وهي التي أقصد بالجوهر فمنصوص عليها في الكتاب والسنة كالصلاة والزكاة والصيام والحج، والعمرة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعاء وسائر أنواع ذكر الله والآداب الاجتماعية... فلا يجوز أن يعبد الله بما لم يشرعه كالرقص والغناء وضرب الدفوف والنفخ في الأبواق والمزامير واعتزال الناس وترك الكلام... ولا يجوز أن تحدد العبادات المشروعة وتقيد بعدد أو وقت أو هيئة إلا من قبل الشرع أي من الكتاب والسنة وهذا ما

---

(١) «آثار الإبراهيمي» (١/ ١٢٠).

قصدته بالصفات. ومثال ذلك... روىٰ ابن وضاح في «**كتاب رد البدع**»[(١)] وذكره الشاطبي في «**الاعتصام**»[(٢)] أن ناسًا كانوا يجتمعون في مسجد الكوفة حلقة وبين أيديهم الحصىٰ فيقول أحدهم: كبروا مائة. فيكبرون، ثم يقول: سبحوا مائة. فيسبحون، ثم يقول: هللوا مائة. فيهللون، فسمع بهم عبد الله بن مسعود فوضع البرنس علىٰ رأسه وذهب حتىٰ جلس معهم، ورآهم كذلك فرفع البرنس عن رأسه، وقال: أنا أبو عبد الرحمن، والله لقد فقتم أصحاب محمد علمًا أو جئتم ببدعة ظلمًا. فقال أحدهم: يا أبا عبد الرحمن، ما فقنا أصحاب محمد علمًا، ولا جئنا ببدعة ظلمًا، لكننا قوم نذكر ربنا. فقال عبد الله بن مسعود: بلىٰ والذي نفس ابن مسعود بيده. ثم طردهم من المسجد، فانطلقوا وبنوا مسجدًا في ظاهر الكوفة وأخذوا يصنعون فيه مثل ذلك، فأمر به فهدم. فالأذكار التي كانوا يذكرونها مشروعة في أصلها، ولكن الاجتماع لها والتحليق واتخاذ رجل يتقدم القوم ويأمرهم فيمتثلون أمره وتحديد عدد لم يحدده النص الشرعي، وتحديد الوقت لذلك - صير العمل بدعة وظلمًا وضلالة، ولو ترك الذكر علىٰ إطلاقه لم يكن بدعة ولا ضلالة، ويؤيده ما رواه مسلم من حديث عائشة عن النبي ﷺ قال: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**»[(٣)]» اهـ[(٤)].

---

(١) **انظر**: «كتاب فيه ما جاء في البدع» لابن وضاح، حققه: بدر البدر (رقم: ٩)، ورقم: (١٧ و١٨ و١٩ و٢٠ و٢٣) مختصرًا.

(٢) انظر «الاعتصام» للشاطبي، حققه: مشهور بن حسن (١/ ٢٢٨)، و(٢/ ٣٢٣ - ٣٢٤).

(٣) رواه مسلمٌ (رقم: ١٧١٨).

(٤) **مقال**: (الأخلاق الإسلامية والأخلاق الإنسانية)، مجلة: «حضارة الإسلام»، العدد (٥)، السنة (٩)، (ص: ٤٣ - ٤٤).

- **ويقول محقق كتاب «الزهد» للإمام وكيع «المقدمة**: الباب الثاني في الزهد والتصوف»، بعد أن ساق روايات إنكار ابن مسعود علىٰ أصحاب الحلق من «**كتاب البدع**» لابن وضاح، و«**الاعتصام**» للشاطبي: «وهذا الإنكار الشديد منه ومن غيره لدليلٌ واضحٌ علىٰ منهج الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين في أمور العبادات، وحرصهم علىٰ الاكتفاء بما جاء في الكتاب والسنة ملتزمين بالدقة في اتباع الرسول ﷺ، وكان هذا الإنكار الشديد علىٰ أخذ السبحات للذكر والتسبيح، **فما بالك في موقفهم من هذا التصوف الذي لُحمَتُهُ وسُدَاهُ من البدع والإحداث في الدين، حيث صارت هذه الطرق المتصوفة مذاهب مستقلة لممارسة العبادات**، بدأ أهل التصوف يمارسون هذه الأعمال بضوابطهم الخاصة، وبدأت فيهم سلسلة البيعة وفكرة اختيار شيخ الطريقة التي يعبرون عنها بتصور الشيخ، وتنوعت فيهم وكثرت الأوراد والأذكار الخاصة والصلوات وأنواع العبادات المخصوصة بمقدار ومكان وزمان، مما لا أصل له في الكتاب والسنة الصحيحة» اهـ[1].

- ويقول الشيخ العربي التبسي في «**بدعة الطرائق في الإسلام**» - بعد أن ذكر «نقلًا من «**الاعتصام**»» أثر ابن مسعود وغيره في منع أصحاب الحلق -: «ولعل زاعمًا يتوهم أن هذا التحديد والتوقيت لا يضر وقد قصد واضعوه الخير. فنقول: **أخطأ الواهم في وهمه؛ فإن السلف لما وقع بين أيديهم شيءٌ أقل من هذا ولا يشاركه في غير أن الرسول لم يفعله أنكروه وعَدُّوهُ ضَلَالَةً...**»، وقال: «**فتفهم - رحمك الله - رأي الصحابة فيمن خالف ما كان عليه نبينا ﷺ كيف ضلَّلُوه وأنكروا ما أتىٰ به، ولم يَعْذُرُوهُ ولَا تَأَوَّلُوا لَهُ وَجْهًا، ولَا نَقَّبُوا لَهُ عَن نِيَّةٍ، بلْ مخالفَتُهُ**

---

(١) عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي: مقدمة تحقيق كتاب «الزهد» لوكيع بن الجراح (١/ ١٣٥ - ١٣٦).

كَفَتْهُمْ دلالة علىٰ إنكار ما أحدث.

وتأملوا - يا أولي الألباب ويا رجال العلم - فيما أحدثه أشياخ الطرائق، فإنه يحدثنا بأن حكمًا وأسرارًا خفيت علىٰ رسول الله وعلىٰ سلف الأمة في تحديد الأذكار للأمة أدركها هؤلاء المستدركون، وأن فضائلَ وخواصَّ في أعدادٍ لم يُهْدَ لها نبيُّ الرحمة وهُدِيَ إليها هؤلاء الأقوام الذين تَجَارَتْ بهم أهواؤُهم إلىٰ أبعد مدىٰ»[1].

ويقول: «لو شاهد أئمة الدين هذه العهود التي اتخذها أشياخ الطرائق حبالة شيعيّة لتضليل الأمة، وغلًّا ثقيلًا يضعونه في أعناق أمة إسلامية جاهلة حتىٰ رقوا منهم هذا المرقىٰ الصعب، **لكان لهم علىٰ الطرقيين وأتباعهم وبدعهم وضلالاتهم - مواقف مشهودة وحملات شديدة تَدَعُ أشياخَ الطرائق وصنائعهم عبرةً للمعتبرين» اهـ**[2].

أقولُ معلقًا:

بدا لي هنا شيءٌ، وهو أن «**النظام الطرقي**»، قد حكم عليه علماءُ الصحابة وبينوا موقفهم منه!، فما أشبه «**الحِلَقَ الطرقية**»، بحِلَقِ من وقف ابن مسعودٍ علىٰ رءوسهم، وأنكر عليهم وطردهم!... وعليه نستطيعُ أن نقول: مُعَدِّلِينَ في «عنوان هذا الفصل»: **إنكارُ الصحابة والسَّلَف لِلْحِلق والترتيبات الطرقية**، علىٰ أنها قد ظهرت أو بوادرُها لاحتْ - علىٰ الأقل - في زمانهم، فأنكرُوها، ومَنَعُوهَا.

ولعلَّ هذا يُغْنينا عن الفصل الآتي، في كون السَّلف لم يعرفوا هذه الطرق، ومثلَ هذه الحِلَق علىٰ ذلكم النظام، فلم يكن لهم فيها وعليها حكمٌ بخصوصها!

(١) «الشهاب»، العدد (١٦٦)، (ص: ٧ - ٨)، ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤٧هـ/ ٠٤ أكتوبر ١٩٢٨م.

(٢) «الشهاب»، العدد (١٦٨)، (ص: ٤)، ٠٥ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ، ١٨ أكتوبر ١٩٢٨م.

[أي: لم ينقل عنهم حكمٌ في المنع منها]، أو أنهم لم يكونوا بحاجةٍ إلىٰ إحداثها في زمانهم، فلما ظهرت الحاجةُ إليها فيمن بعدهم ساغ لهم إحداثها!!، تلكم هي إحدىٰ شبهات الطرقيين، واحتجاجاتهم علىٰ السلفيين!!

أصلٌ عظيمٌ في ردّ بدع الغالين والمتزيّدين:

يقول الشيخ العربي التبسي في «بدعة الطرائق في الإسلام»: «وكأني بجاهل يطعن في هذا الكلام بأن حاصله أن رسول الله ﷺ وصحابته وأئمة الاجتهاد تركوا هذه العهود ولم تعرف في أيامهم. وحاصلُ ذلك ترك منهم والترك لا يوجب حكمًا في المتروك ومن أحدثها رام منها فوائد دينية إلىٰ غير ذلك مما يقوله دخلاء العلم»، وتوضيحًا لهذه الشبهة، بعبارة أخرىٰ: [«إن الترك المرويَّ عن السلف لا يدلُّ علىٰ حكم إذ لم ينقل عن أحد منهم أنه كرهه أو منعهُ»[1]].

وهذه حجةُ كلّ من يُحسِّنُ البدع في الدين، من الطرقيين وغيرهم!

يقول الشيخ «التبسي» رادًّا عليهم: «... إن طعن في هذا الكلام بهذا الطعن قلنا: إن ترك صاحب الملة وسلف الأمة لأمر من الأمور علىٰ وجهين:

أ- أنه لا يوجد سببه، ولا ينزل بالأمة ما يدعو له ولا إلىٰ التكلم فيه، فهذا السكوت عنه لا يوجب حكما معينًا في المتروك. ودليله قائم في عموميات الشريعة اللفظية أو المعنوية.

ب - والوجه الثاني: أن يوجد سببه، وتتوفر علله، ويترك العمل به منه ﷺ أو من سلف الأمة. فالترك في مثل هذا كالنص اللفظي المحتم علىٰ أنه لا عمل فيه. وأن الترك: هو حكم الله. **مثلًا: الذكر أو العهود أسبابها قائمة والداعي إليها موجودٌ**

(١) فتوىٰ للفقيه ابن لبّ. انظر: «المعيار» (١/ ١٥٥ - ١٥٦).

ورسول الله ترك تحديد الأذكار والعهود. الأَمْرُ الذي يَنْشُدُهُ أشياخُ الطرائق عند حسن الظن بهم فيها موجودٌ، والسلف تركوها وقد ظهر في أيامهم ممن لم يخالط بشاشة الإيمان قلبه ما ظهر من الردة في خلافة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيرها، فما أعطوا هذه العهود ولا سمع بها في أيامهم وذلك دليلٌ قاطعٌ علىٰ أن العهود الطرقية لا يعرفونها وإنه لا زيادة في الأذكار والهداية الإسلامية علىٰ ما كان عليه سلف الأمة، وإذا ذكرت - أيها القارئ - أن العبادات في أمنع مكان عن الأقيسة الواهية والاستحسانات فقل إلىٰ أشياخ الطرائق: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣]» اهـ[1].

- **ويقول الإمام ابن باديس:** «إن هذا الأصل وهو أن ما تركه النبي ﷺ مع قيام المقتضىٰ فالدين تركه والزيادة عليه بدعة مذمومة مخالفة لمقصد الشارع - **هو حُجَّةُ المصلحين في رَدِّ بِدَعِ الغالين والمُتَزَيِّدِين...**»،

ويقول: «هذه هي حجة كل مبتدع ومحدث في الدين ما ليس منه ومتعبد بغير ما شرع الله لعباده بواسطة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، يفعل ما تركه النبي ﷺ بدعوىٰ أن في فعله خيرًا وفضيلةً وزيادة مفيدةً، ويعارض التشريع الإلهي بالترك النبوي مع قيام المقتضي برأيه وهواه، واستدراكه ودعواه، ومن مقتضىٰ منعه - مطلقًا - أن ذلك الخير وتلك الفضيلة والزيادة المفيدة قد فات النبي ﷺ في السنين الطويلة التي عاشها تاركًا لها فلم يفعلها ولم يبلغها وهو المأمور بالتبليغ المعصوم من الكتمان، حتىٰ تفطن لها هذا المبتدع فجاء بها وفاز بتحصيلها وكانت من الفضائل التي رجح ميزانه بها وخلا منها ميزان محمد ﷺ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً

(١) «الشهاب»، العدد (١٦٨)، (ص: ٤)، ٠٥ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ، ١٨ أكتوبر ١٩٢٨م.

تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا﴾ [الكهف: ٥]» اهـ[1].

والخلاصةُ: أن حكم السلف علىٰ هذه الطرائق هو المنعُ منها بأحد وجهين، أو بهما جميعًا: إما بتركهم لها مع وجود دواعيها وهو كالنص في المنع، وإما بنصهم علىٰ إنكارها قوليًّا وقيامهم بالمنع منها عمليًّا، كما في قصة ابن مسعود وغيره من السلف مع أصحاب أولئك الحِلَق.

أَيَكُونُ الطرقيُّ مُوَحِّدًا سُنِّيًا ؟ ، أوْ: أَيكونُ سلفيًّا ؟!:

لقد أجابَ الدكتور تقي الدين الهلالي، الذي أبطل هذه الطرق كلها، وحكم عليها حكما عامًّا بالبدعة، أجابَ من استشكل تعميمه!؛ وقال: هل هذا الحكم عامٌّ، ولو كان الطرقيُّ مُتَّبِعًا غير مبتدع؟!!

فَبَيَّنَ لَهُ أنَّ هذا نشأ من عدم تصور حقيقة الطريقة وماهيتها، فلو كان متبعا لما كان طرقيًّا.

وها هو ذا بنصِّهِ:

«**وقد آن لنا أن نسأل الطرقيين**: أهذه الحالة التي أنتم عليها هي ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون والأئمة المجتهدون؟ فإن قالوا نعم. جاهروا بالكذب، ونسألهم ما هي طريقة أبي بكر، وما هي طريقة عمر، وما هي طريقة عثمان، وما طريقة علي، وأين كانت زواياهم، وكيف كانوا يُلَقِّنُون العهود، وما هي أورادهم، وهل تعتقدون فيهم أنهم كانوا يُحْدِثون في الدين كما تُحْدِثون؟ وكذلك يقال في التابعين والأئمة المجتهدين، فلا يكون لهم جواب إلَّا أن يعتمدوا بناتِ غي، فيزدادون إثمًا، وإن اعترفوا أنهم أحدثوا رسومًا وناموسًا لم يكن عليها

(١) «آثار ابن باديس» (٣/ ٢٩٧ – ٢٩٨).

السلف، واختلفوا في ذلك حتىٰ عادىٰ بعضُهم بعضًا، وصاروا يروُون عن النبي ﷺ المتناقضات يقظةً بزعمهم، تبيَّنَ واضحُ [ضلالهم] وشهدوا علىٰ أنفسهم أنهم مُتَّبِعُو سبلَ الشيطان»[1].

وقال: «يتبعون خطوات الشيطان في بدعهم التي ابتدعوها، كتفرُّقهم في الدين، واتخاذ كلِّ طائفةٍ لقبًا مخصوصًا، ومَعْبَدًا مخصوصًا، **ويتخذون شيخَهم إلهًا ونبيًّا معًا**.

أمَّا اتخاذُهم إيَّاه إلـهًا، فلأنَّهم يَصْرِفون له خالصَ عبادتهم، فإذا مسَّهم الضرُّ في البحر أو البرّ، لا يدعُون لكشف ضرِّهم إلَّا شيخهم، ولا يتوكَّلون في تفريج الكربات إلَّا عليه، ويحبُّونه أكثر من حبِّهم لله. والدليل علىٰ ذلك: أنَّ أحدهم لو سمع سبَّ اللهِ والاستهزاءَ بدينه فإنه لا يغضب مثلَ ما يغضب إذا نِيل من شيخه، وإذا سُئل بالله منع أو أعطىٰ قليلًا، وإذا سُئل بشيخه عَظُمَ عليه المنع جدًّا، فربما يؤْثر علىٰ نفسه ابتغاء مرضاة شيخه، وينشط لقضاء نذور شيخه ما لا ينشط عُشْره لأداء فرائض الله، ويحلف بالله كاذبًا ألف مرَّة ولا يحلف بشيخه مرَّة كاذبًا، ولوْ سوَّىٰ الواحدُ منهم شيخَه بالله في هذه العبادات، لكان مشركًا، فكيف إذا جعل النصيبَ الأعظم منها لشيخه، وربما يجعلها كلَّها له ،علىٰ أنه لو جعل منها مثقالَ ذرَّةٍ لغير الله كان شِركا وحبط عمله».

وقال: «**وأمَّا اتخاذهم إيَّاهُ نبيًّا في المعنىٰ**، فإنـَّه يشرِّع لهم عباداتٍ محدَّدةَ العَدَد

(١) (سبيل الله، وسبل الشيطان، لا طرق في الإسلام)، وهو جزءٌ من مقال: (مريض يشتم طبيبه فكان ماذا؟)، نُشِر في: «الشهاب»، (العدد ١٧٠)، (ص: ٣ – ٥)، قسنطينة، الخميس ١٩ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٧هـ، (١) نفامبر ١٩٢٨م.

بغير تحديد الرسول ﷺ مؤقّتةً بغير توقيت الرسول ﷺ، ويبشِّرهم ببشائر لا أصل لها في الدين، ولم تُرْوَ عن النبيّ ﷺ ولا عن أحدٍ من السلف، ويُنذرهم بضروبٍ من الوعيد كذلك، ويزعم أنه علَّمَه الله ذلك بغير واسطة النبي ﷺ، علىٰ غير الطريق الذي أخذ منه الصحابة علمَهم، والتابعون والأئمة، فإنَّ أولئك إنما أخذوا علمهم من الشريعة، التي هي الكتاب والسنَّة».

وقال: «**لأنَّ مبنىٰ الطريقة، أيِّ طريقة، علىٰ التسليم للشيخ علىٰ كلِّ حال**، وأن يكون المُرِيد عنده كالميِّت عند مُغَسِّله، وأنشدوا:

وكــن عنــده كالميــت عنــد مغــسل ... يقلبه ما شـاء وهـو مطـاوع» اهـ[1].

أَخْذُ العَهْد الطُّرُقي بدعةٌ:

نشر الإمام ابن باديسٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجلته «**الشهاب**» [المجلد: ١٣/ الجزء ١/ ١ محرم ١٣٥٦هـ - ١٤ مارس ١٩٣٧م/ ص: ٢٥ - ٢٦] تحت عنوان: «**الدجل**» نص استفتاء وجوابه لأحد المدرسين، عن «**مجلة الإسلام**» المصرية: «تلقينا رسالة من جمعية الشبان المسلمين «بدماص دقهلية» وموقعة باسم... يشكون فيها من بعض مشايخ الطرق الذين يجوبون البلاد بزعم الدعوة إلىٰ الدين والفضيلة، وهم في الواقع يجوبونها لأخذ العوائد وبث الخرافات ويحملون اتباعهم في سبيل الاحتفاء بهم فوق الطاقة وربما يقترضون المال بالربا الفاحش لعمل «عزائم» قد تبلغ تكاليفها أكثر من ثلاث جنيهات، ثم يعتقدون أنه في حال عدم عمل العزومة ودفع العوائد، قد يحصل لهم ضرر وموت جاموسة أو خلافه، وتسألنا هذه

---

(١) **مقال:** (هل فيهم رجلٌ رشيد؟)، نُشِرَ في: «الشهاب»، العدد (١٣٦)، (الصحيفة: ٤ - ٨)، قسنطينة، الخميس (١) رمضان ١٣٤٦هـ، ٢٣ فيفري ١٩٢٨م.

الجمعية أو المتكلم باسمها رأينا في هذا وفي «أخذ العهد» أهو حرام أم حلال؟»»، وكان الجواب: «وإننا نقول في الإجابة علىٰ هذا: إن من الكبائر أن يلزم الرجل نفسه بما لا يستطيع، وإن من أشنع الجرائم أن يقترض بالربا لأجل الاحتفال برجل يَتَزَيَّا بزيّ رجال الدين وربما كان من كبار المجرمين، لأنه لو كان صالحًا حقًّا لما رضي لأتباعه بالوقوع في جريمة الربا، ولما أخذ علىٰ إرشاده ووعظه «أجرًا»... وأما الاحتجاج بأنه يأخذ «العادة» ولو من طريق الربا ليعطيها لآخرين من غير البلد، فهذا حرام في الشرع، وأما الضرر الذي يقع علىٰ من لم يؤد «العادة» فهو ضرر موهوم منشؤه وساوس الشياطين في رءوس «المغفلين»... **وأما مسألة «العهد» فلا بأس منه إذا جر نفعًا، ولا خير فيه إذا جلب ضرًّا - كما يحصل في عهود بعض المرتزقة -...**» اهـ.

لقد نشر الإمام ابن باديس الاستفتاء وجوابه، في مجلته، لغرضٍ قصده، وكأني به لم يرتض جواب ذاك المفتي، الذي شدد في التحذير من تلكم الشرور الظاهرة، في حين تساهل في حكم أعظم تلكم الشرور، بل في مسببها ومولِّدها، فقام الإمام بواجب البيان، وجلَّىٰ الحقيقة التي جهلها ذاك المفتي، أو غابت عنه!.

قال الإمام:

«**ش: أخذ العهد الطرقي بدعة لم يفعلها السلف الصالح** رَحِمَهُمُ اللَّهُ. **وهي الذريعة لكل ما ذكره في السؤال وأجاب عنه ولغيره. فهي حرامٌ لِبِدْعِيَّتِهَا والتَّذَرُّعِ بها للشر والفساد والضرر**» اهـ.

وهذا الذي صرح به الإمام، هو الذي قدمناه سابقًا من كون «**الانخراط في طريقة**»، و«**إعطاء العهد لأحد شيوخها**»: أمرٌ محرمٌ؛ لأنه بدعةٌ، هذا أولًا. وثانيًا: لأنه ذريعةٌ لشرورٍ عظيمةٍ في الدين والدنيا.

لذا قال الإمامُ في سياقٍ آخر: «والطرق حيثما كانت فهي تكأة وملجأ البدع والخرافات»[١].

حادثةٌ فيها عبرة، أو: الحَمِيَّة الطرقيَّة:

حدث ذلك للشيخ **أحمد بوشمال**[٢] - عضد الإمام ابن باديس وأمين سرِّه، والمدير العلني لصحيفة «**الشهاب**»، خليفة «**المنتقِد**» - حيث اجتمع في بلدة: «**الجلفة**» بالشيخ «السعيد بن عبد السلام الباش آغة»، - بغرض جمع اشتراكات مجلة «**الشهاب**» - فكان منه اعتراضٌ ومن «بوشمال» دفاعٌ - في هدوء - عن الخطة الدينية التي انتهجها ابن باديس وإخوانه وتلامذته، فإذا برجل قد شابت لحيته «متوسم بوسام العلم ونشاني الافتخار والاحترام» عُلِمَ بعد ذلك أنه «قاض يحكم بين الناس ويصلح بين المتخاصمين!... ومؤلف أيضًا!..»، ظهرت منه أخلاق سيئة، وآداب منحطة، خاض معهما في الحديث بعناد وتكبر، وَصْفَ مَنْ «لا يرىٰ الحق إلا لجانبه»؛ سأل ذاك «الباش آغة» «بوشمال» قائلًا: «**ما قولكم في مسألة تجديد العهد؟**... لما أحس «بوشمال» أن المفاهمة معه «عسيرةُ النَّوَال»، قال

---

(١) «آثار ابن باديس» (٥/ ١٣٠).

(٢) **هو الأستاذ أحمد بوشمال:** مدير مجلة «الشهاب» وصاحب امتيازها إلىٰ أن توقَّفَت، ولد في مدينة قسنطينة في عام ١٨٩٨ ونشأ فيها، وحفظ القرآن العظيم. وكان في الرعيل الأول من تلامذة الإمام عبد الحميد بن باديس، وأصبح من خواصِّه وملازميه، بل أمين سرِّه، رافقه وناصره في نضاله منذ بدأ الإمام ابن باديس مسيرته في «الجامع الأخضر» إلىٰ أن توفي في سنة: (١٩٤٠م). اعتُقِلَ أثناء الثورة، في ١٣ سبتمبر ١٩٥٨م، ولم يظهر له أثرٌ - رحمه الله تعالىٰ -. انظر: «شهداء علماء معهد ابن باديس» لأحمد حماني: (ص: ٤٥)، و«من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ١٦٩ - ١٧١) للحسن فضلاء.

له متباعدًا عن النزاع: إن «وظيفتي الآن هي تجديد اشتراككم، وأعمدة «الشهاب» تتشرف بنشر سؤالكم وهي رحبة لردود الرادين». ثم التفت «للموصوف المزين الصدر بالأوسمة»، ورغب منه تشريفه باسمه، فأجابه بعنف: لا أعطي اسمي للمتعجرفين - لماذا متعجرفين؟ فنطق أحد - دخيل أيضًا - بأبيات معناها أن كلَّ من أتىٰ بنكرة جديدة فهو يدعىٰ زنديق! فأجابه: «**لا مذهب جديدًا نريد نشره ولا غاية للشبيبة إلَّا إصلاح الأمة وجمع كلمتها علىٰ الصالح العام**...»، ثم قال: «ثم هممت بكتابة وصل السيد الباش آغة وفي ذمته أربعة أشهر فقال: «هذه الجريدة انْتَاعْكُمْ يأخذها...» فأجاب صاحب الدكان الذي نحن فيه جالسون: أمالَا... **علىٰ ضلال!**؟ قال: هذا هو مذهبكم. قال: هذا هو مذهبكم. فختم «بوشمال» هذا المجلس بقوله: «لا مذهب لنا جديدًا»، **وإنما الذي جلب علىٰ الأمة هذا الشقاق والتفرق، إنما هو**: «**هذا الافتراق الطرقي الذي نحن بصدد إزالته** وولجنا لأجله هذا الطريق الصعب وقلنا الحق الذي أغضب كثيرًا من الناس. **أفلا يكونُ المسلم مسلمًا إلَّا إذا جدَّدَ العهد وصار تابعًا أو خادمًا لأحد الأشياخ**؟ إيه..! إنا نرىٰ ونسمع - وقد رأينا وسمعنا - أعمال وأقوال الذين جددوا هذا العهد...!» فما سمع هذا الكلام ذاك المخلوق، حتىٰ قام ووجه إليه ضربتين لولا أنه تباعد عنهما لوقعتا عليه، «**وأخذ يقول: لا تستحي تسبّ الأولياء** وتقول هذا الكلام أمام الباش آغة وشرع في سرد ألفاظ السب والبذاءة علىٰ مسمع من الناس مجتمعين أمام الدكان»، حملهُ علىٰ ذلك: «**غَيْرَتُهُ المرابطية وحميته الطرقية**»، وكاد أن يسلط عليه مجموعةً ليفتكوا به**!**[1].

---

(١) «الشهاب» ، العدد (٨٧)، ٦ رمضان ١٣٤٥هـ موافق ١٠ مارس ١٩٢٧م، (ص: ١١ - ١٤)، =

وَعَوْدًا علىٰ بدءٍ: أقولُ: لو زعم زاعمٌ أن طريقته، أو نسبته لأحد شيوخ الطرق، تخلو من تلكم الشرور في الدنيا، فهل هي خاليةٌ من الشرور الأخرىٰ المتعلقة بالدين - مما ذكره الدكتور الهلالي -؟!، ولو سلمت من كل ذلك!، فإنه يحرمُ عليه التلبسُ بهذه الأوضاع لا لشيءٍ إلَّا لبدعيتها. فهل يَفْهَمُ هذا مَنْ يَرُومُونَ إصلاح الطرق مع إقرارٍ بها!!.

فإذا أبطل «**الإصلاح السلفيُّ**» هذه البدعة، يكونُ بذلك قدْ نَسَفَ «**الطرقية**» من أساسها، وقضىٰ عليها القضاء المبرم، ومحاها من «الوجود».

هلْ كان ابنُ باديس وإخوانُهُ، يُقِرُّونَ بأصل الطرق؟:

وقد أخطأ الفهم من رأىٰ رجال «**الإصلاح السَّلَفِي**» في الجزائر، يفيضون في نقد آثار الطرق، ويفضحون مخازيها في الدين والدنيا، أخطأ من حسب أنهم لم يكونوا يحاربون أصل هذه الطرق، وإنما يحاربون المعوجَّ منها، ويَعِيبُون «فقط» الانحراف الذي طرأ عليها!

بلْ هي في أصلها ومبدإِ أمرها «انحرافٌ» عن طريقة محمد ﷺ، و«اعوجاجٌ» عن سبيل المؤمنين.

ولعلَّ الذي دفع بهؤلاء إلىٰ هذا الخطإ في التصور ثم الحكم - هو بعض المواقف التي صدرت عنهم: من مسالمةٍ لبعض الطرقيين، أو إبداء الاستعداد للتعاون معهم إذا لم يكونوا مُسَيَّرين من طرف الاستعمار!

ونقول جوابًا عن ذلك: تلك كانت مواقف عملية، اجتهدوا فيها، وقدَّرُوا فيها لكل مرحلة ما يناسبها، ثم إنهم كانوا في ذلك يسيرون علىٰ نهج التدرج والتقدم في

=

مقالة: (عجز عن القول فاضطر للضرب، شأن الأوباش).

الإصلاح علىٰ مراحل، فرأوا في سبيل إرجاع الطرقيين إلىٰ الحق، والتفاهم معهم، أن يخطوا بهم خطوة بعد خطوة، وإلَّا فالرجوع الكامل دفعة واحدة إلىٰ السنة ومجانبة البدعة، وتَبَنِّي السَّلَفِيَّة الحقَّة، أمرٌ لا يكاد يتحقق وقوعه! - إلَّا نادرًا -.

هذا مع علمهم أن الإصلاح والعمل بالتوحيد والسنة، لا يَتَأَتَّىٰ مع هذه الطرق، ومهما حاول المحاولون لإقرار هذه الأوضاع، وادعاء صلاحيتها، فإن «**الإسلام الصحيح**» لا يُقِرُّهَا ولا يعترف بها جميعِهَا، «**فطريقة الإسلام واحدة، فما حاجة المسلمين إلىٰ طرق كثيرةٍ**».

ومما يقوي هذا الذي ذكرته، ما سلكه الشيخ أبو يعلىٰ الزواوي في كتابه: «**الإسلام الصحيح**»، وقد أفصح عن طريقته فيه، فقال: «... **أردنا أن نحمل شعار الإسلام المعتمد من الكتاب والسنة وما كان عند السلف أصحاب خير القرون، وما لا فنضرب به عرض الحائط**، كفانا من التكاليف والتقاريع وحمل الأثقال، وقيل وقال، وكثرة المذاهب والشياع **والطرق ونحو ذلك من التزام ما لا يلزم مما** حمل الأمة أثقالًا علىٰ أثقالها. فإن الخلاف القائم الآن بين الوهابيين والإصلاحيين السلفيين[1] من جهة، والمتصوفة وعامة الأمة من جهة - له التفات وسيعظم شأنه بطول الزمان والله أعلم. ولله عاقبة الأمور، **وإنما يلزم حسن التفاهم بالتي هي أحسن** وبحسن الظن، وبدون عنف وبدون تعصبات شخصية أو جنسية أو وطنية أو مذهبية، وبدون لعن وطعن وتفسيق وتكفير كما هو شأن المناظرات

(١) علَّق صاحبُ «الشهاب» (الإمام ابن باديس) - علىٰ مثل هذه العبارة في موضعٍ آخر من المقالِ نفسِهِ - بقوله: (ش: الإصلاحيون السَّلَفِيُّون عام، والوهابيون خاص لأنه يطلق علىٰ خصوص من اهتدوا بدعوة العلامة الإصلاحي السَّلفي الشيخ [ابن] عبد الوهاب) اهـ.

وإدلاء الحجج وتقديم البينات، والعمل بأحسن أقسام الحجة والبرهان بأن لا يكون الغرض إلا بيان ما صح من ديننا وما ينفع لاجتماعنا للدنيا، ولا نظن أن عاقلًا يعمل علىٰ غير هذا الوجه المطلوب... وبهذه الطريقة عملت وعليها سِرْتُ في كتابي «**الإسلام الصحيح**» الذي هو الآن يطبع في مطبعة صديقنا الأستاذ المصلح الشيخ محمد رشيد رضا بمصر»[١].

- وفي هذا الكتاب ذكر الزواوي تحت عنوان «**صحة الإسلام بدون هذه الطرق**»: «**يصح لأنها محدثة وليست واجبة إذ هي جائزة الترك**، ومن قواعد الأصول أن جائز الترك ليس بواجب»، ثم علَّقَ علىٰ ذلك مستدركًا[٢]: «يعني أنها جائزة الترك بدليل أن الإسلام كان علىٰ أكمله من قبلها - **يعني علىٰ أقلِّ تقدير وإلَّا «فكلُّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» كما كان النبيُّ ﷺ يقول في خطبته، وهي إذًا واجبة الترك**...»[٣]اهـ.

الهجوم على فساد الطرقية:

أما الإمام ابن باديس، فإنه لما أَسَّسَ صحيفة «**المنتقِد**»؛ «كي تشن الهجوم علىٰ الفساد والطرقية»؛ لم ينسبها لنفسه، وجعل يديرها مختفيًا[٤]، وقد قامت الصحيفة «بالدعوة العامة إلىٰ الإسلام الخالص، والعلم الصحيح، إلىٰ الكتاب والسنة

---

(١) «الشهاب» ، (العدد: ٩٨)، (ص: ٤ - ٥)، مقالة: (الوهابيون سنيون...).

(٢) ربّما لا يكون هذا التعليق للشيخ أبي يعلىٰ الزواوي، بل من تعليق الشيخ رشيد رضا (صاحب مطبعة المنار)، والله أعلم.

(٣) «الإسلام الصحيح» (ص: ٦٤).

(٤) **انظر**: «صراع بين السنّة والبدعة» (١/ ١١٤)، و«شهداء علماء معهد بن باديس» (ص: ٤٥) لأحمد حماني - رَحِمَهُ ٱللَّهُ -.

وهدي صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات»[(١)]، وقد انبرت أقلام المصلحين للكتابة فيها، ومن تلكم الكتابات الجريئة النقّادة!، ما كتبه الشيخ **محمد الصالح خبشاش** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٢)]، بعنوان: «**نكبات الأمة الجزائرية**»[(٣)]، تعرض فيه لـ «خزعبلات مشايخ الطرق واستمالتها لبسطاء العقول من العلماء»، قال: ««**أرباب الطرق**» وما أدراك ما أرباب الطرق «إلّا بعضهم» فقد وقفوا حجر عثرة في طريق رقينا، بتمويهاتهم التي يلقونها علىٰ الأذهان الساذجة، والاعتقادات الباطلة الفاسدة التي لم تتوخ الحق في شيء، ودعاويهم المفندة. فكم سمعناهم يدعون أنهم يرون ما لا يراه الناظرون، وأن مفاتيح الخير والشر معقودة بأيديهم، وأنّ من لم يرضِ شيخه لم يرض عليه ربّه وأنّ مقاليد الجنون رهن يمينهم يتصرفون فيهم كيفما شاءوا، وغيرها. وهذه كلها دعاوٍ لم يؤيدها برهان، ولم تقم عليها حجة بتبيان.

ومن أفظع الجنايات التي جناها هؤلاء ادعاؤهم [أنّهم] رؤساء الديانة ورافعو رايتها... إن هؤلاء السحّارين الأفاكين تسلّطوا علىٰ العامّة تسلّط المالك علىٰ المملوك بصفة كونهم زعماء الدين والداعين إلىٰ سبيل رب العالمين: فابتزوا أموالهم وامتصوا دماءها، حتىٰ إنك لتجد أقلهم سحرًا يمتلك الملايين من الدنانير، والعجب

(١) «الآثار» (٥/ ١٠٣).

(٢) ولد سنة (١٩٠٤م) بقرية وادي يعقوب قرب مدينة قسنطينة، تعلّم بالكُتَّاب، ثمّ علىٰ يد الشيخ ابن باديس، نحوًا من (٨) سنوات، وتخرج علىٰ إثر هذه الدراسة أديبًا له مكانته الأدبية حسب عصره. عاش في آخر حياته معيشة ضنكة، وزاده المرض الذي طال أمدُهُ همًّا علىٰ همّ، توفي في مستشفىٰ قسنطينة المدني بداء الصدر يوم ٢٢/ ٠٣/ ١٩٣٩م، رَحِمَهُ ٱللَّهُ. انظر: «نفح الأزهار عما في مدينة قسنطينة من الأخبار» للمؤرخ سليمان الصيد - رَحِمَهُ ٱللَّهُ - (ص: ٢٢٠ - ٢٢٧).

(٣) «المنتقد» العدد (٤)، ٣ محرم ١٣٤٣هـ، موافق ٢٣ جوليت ١٩٢٥م.

كل العجب من العامّة تشاهد بعينيها وتسمع بأذنها، وما تنفك طائعة لهم معتقدة صلاحهم وأهليتهم لرياسة الدين. تالله لقد ضلَّ هؤلاء الدجالون ومن يقتدي بهم، وأيّ ضلال فوق اعتقاد تنزل الوحي بعد محمد علىٰ أحد أسلافهم، وإن كانوا لا يعتقدونه وحيًا صرفًا إلا أنه «ابن عم الوحي».

هذا جزء يسير من موبقات هاته الكتلة الضالة، ولو تتبعت كل ما تأتيه من الفواحش والمنكرات لما وسعني المقام» اهـ.

نقلت هذا الفصل علىٰ طوله - وإن كان ليس مقصودًا في بحثي هنا، وقد اتفق معنا عليه أقوامٌ أشرنا إليهم سابقًا! - ، لأجل تعليق الإمام ابن باديس عليه؛

قال تحت عنوان «ملاحظاتي»: «... عرض السيد خبشاش للطرق: **وَرَأَيْنَا فيها إذا حَسُنَ بقاؤُهَا وجب إصلاحها**؛ لأنها قد أُدْخِلَ عليها من البدع ما لا نشك في براءة مؤسسيها الأولين منه، ولعلهم هم الذين نجدهم عضدًا قويًّا فيما نقصده من الإصلاح».

هذا تعليق الإمام؛ مدير «**المنتقد**» المختفي، فيه إشارة قوية لما ذكرناه سلفًا، من أن القضية هنا قضية «**مرحلية**» في الدعوة والإصلاح والتغيير؛ **فقوله:** «**إذا حَسُنَ بقاؤُهَا**» [**وقول الزواوي:** «**جائزة الترك**»]؛ فيه زعزعةٌ لكيان هذه الطرق، التي لا زالت إلىٰ عهد قريب جدًّا قبيل ظهور «**المنتقد**»، أمرًا مقدَّسًا، محاطًا بسياج من التهاويل، لا يجرؤ أحدٌ علىٰ انتقاده!، وقد صرّح بهذا الشيخ مبارك الميلي، في «**رسالة الشرك ومظاهره**»، وهو يقدم لقصيدة العلَّامة العقبي «**إلىٰ الدين الخالص**»، التي نشرت في «**المنتقد**»؛ العدد الثامن، [٣ محرم ١٣٤٤هـ موافق ٢٠ أوت ١٩٢٥م.] قال: «فكانت تلك القصيدة أول مِعْوَل مؤثر في هيكل المقدسات الطرقية. **ولا**

يعلم مبلغ ما تحمله هذه القصيدة من الجراءة ومبلغ ما حدث عنها من انفعال الطرقية، إلا من عرف العصر الذي نشرت فيه وحالته من الجمود والتقديس لكل خرافة في الوجود»[١] اهـ.

وشهد شاهدان من أهل الطرق!!:

بعد أن وقفنا علىٰ بعضٍ من موبقات أرباب الطرق وأوضاعهم، في عرض الشيخ «محمد الصالح خبشاش»، نعودُ إلىٰ ذلك، لكن هذه المرة من خلال شهادة أصحاب الطرق علىٰ أنفسهم.

١- جاء في كتاب «الإسلام الصحيح»، بعد أن ذكر مؤلفه: الزواوي «اختلاف أصحاب الطرق»، و«أنها مختلفة بقدر تعددها ولو لم تختلف لاتحدت... وبالفعل نرىٰ أصحاب الطرق متنازعين ومتشاكسين ومتشاجرين كل واحد من أتباع تلك الطرق... يقول للآخر: طريقتنا نحن ليست هكذا وشيخنا ليس كشيخكم وذكرنا وحضرتنا ليس كذكركم وحضرتكم»،

ثم قال معلِّقًا[٢]: «سئل شيخ الطريقة القادرية بطرابلس الشام في القرن الماضي عن سبب تعدد الطرائق واختلاف أعلامها وألوان عمائم شيوخها وخلفائها، فأجاب وكان منصفًا لا دجالًا بقوله: تغيير شكل، لأجل الأكل»[٣].

٢- الشاهد الآخر: عبد الحيّ الكتاني؛ و«عبد الحي» هذا: «خصمٌ لَدُودٌ للسلفيين،

---

(١) «رسالة الشرك» (ص: ٢٨٤).

(٢) ربّما لا يكون هذا التعليق للشيخ أبي يعلىٰ الزواوي، بل من تعليق الشيخ رشيد رضا (صاحب مطبعة المنار)، والله أعلم.

(٣) «الإسلام الصحيح» (ص: ٦٢ - ٦٣).

وحَرْبٌ عَوَان علىٰ السلفية» كما قال الإبراهيميُّ. ومما ينقضي منه العجب، أن «تقي الدين الهلالي» كان قد نزل عند «عبد الحي» في فاس «سنة ١٣٤٠هـ»، وكان «الهلالي» لا يزال تجانيًّا، فطعن له «عبد الحي» في الطريقة التجانية، بل وطعن له أيضًا في طريقته الكتانية، التي هو شيخها، وفي الطرق جميعًا، يقول «تقي الدين الهلالي» في «**الهدية الهادية إلىٰ الطائفة التجانية**»: «... فقال لي: **كل الطرائق باطلة** وإنما هي صناعة للاحتيال علىٰ أكل أموال الناس بالباطل وتُسَخِّرهم وتَستعبدهم، قال: أنا لم أؤسس الطريقة وإنما أسسها غيري وهذه الأموال التي آخذها منهم أنفقها في مصالح لا ينفقونها فيها...»(١)، كما اعترف له أنه لا يعتقد الطريقة الكتانية، ولا غيرها. فما بالُهُ يحارب السلفية؟ ، ولكنْ كما قال الإبراهيمي: «وهل يُرْجَىٰ مِمَّنْ نشأ في أحضان الطرقية، وفتح عينيه علىٰ ما فيها من مال وجاه وشهوات ميسرة ومخايل من الملك، أن يكون سلفيًّا...»(٢).

طرقية ابن باديس ثم تخلُّصُهُ منها:

وقد أشيع عن الإمام ابن باديس، بعد تلكم المقالات الجريئة النقدية في المقدسات الطرقية، التي حملها «المنتقد»: أنه هو صاحب الصحيفة، وكاتبُ مقالاتها!!، فنشر والد عبد الحميد ابن باديس: محمد المصطفىٰ ابن باديس، في «**المنتقد**»: «**تكذيب إشاعة**» [العدد «١١»، ٢١ صفر ١٣٤٤هـ موافق ١٠ سبتمبر ١٩٢٥م]، بعث بها إلىٰ مدير «**المنتقد**» الظاهر، والإشاعة المراد تكذيبها هي: نسبة «**المنتقد**» لابن باديس، وكونه العقل المدبر لها!!، وذلك أن أقوامًا خاضوا في الحديث متعجبين، من تلكم

---

(١) «الهدية الهادية إلىٰ الطائفة التجانية» (ص: ١٤).

(٢) «الآثار» (٣/ ٥٤٤).

النسبة، وما نشر بها من «عدة مقالات وقصائد تتعلق بالطرق الصوفية والكلام علىٰ المرابطين الحاضرين والغابرين وبعبارة أعم بالكلام علىٰ علوم القوم إلخ»، كأنهم جعلوا العهدة كل العهدة علىٰ ابن باديس صاحب «**المنتقد**»!!، ثم برَّأَ والد ابن باديس ساحته وساحة ابنه عبد الحميد من التجرؤ علىٰ «أولياء الله فإننا لا نرضىٰ أن يتجرأ كاتب عليهم، كما لا نرد علىٰ صاحب مقالة؛ لأن ذلك لا يعنينا، وإنما مقصودنا هو التنصل كل التنصل من ذلك»، ثم قال: «**وعلىٰ ذكر عبد الحميد فإن عقيدته في الأولياء والصالحين معروفة في دروسه وفي زياراته لأضرحتهم يعلم منه هذا خاصة الناس وعامتهم، وهذه هي سيرتنا جميعًا نقدس الأولياء ونعظمهم ونجلهم، كما ذلك لا يحتاج منا إلىٰ دليل...» اه**.

نعم لقد كان عبد الحميد في جملة أسرته طرقيًّا قادريًّا رحمانيًّا خلوتيًّا، درس علىٰ معلمه الأول بإحدىٰ زوايا القادرية، حيث كانت أسرته من أتباع الطريقة القادرية، ومعلمه الشيخ «الميداسي» من أتباع هذه الطريقة أيضًا، ذلك أن «التبعية لإحدىٰ الطرق الصوفية في الجزائر إبان العهد الاستعماري كانت ظاهرة شائعة بل و«موضة» مرغوبة من قبل كافة الجزائريين تقريبًا، فلقد كان من المتوارث عن شيوخ الطرق آنذاك أنه: «من لا شيخ له فالشيطان شيخه»»[1]، لكن عبد الحميد ابن باديس، لم يلبث أن تخلص من تأثير الطرقية عليه، فما جاءت سنة «١٩٢٦م»، حتىٰ كان قد تخلَّصَ منها تمامًا[2].

---

(١) **د. عبد الكريم الصفصاف**: (ابن باديس: الرمز، في ذكراه الثانية والستين)(ص: ١٨).

(٢) قال الدكتور محمد بن سمينة (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) في كتابه «محمد العيد آل خليفة.. » (ص: ١٨ - الهامش): (يروىٰ أنه [أي: ابن باديس] كان يأتي مع ركب الطرقية إلىٰ زيارة [شيخ] الطريقة الرحمانية بالجزائر =

ثم كتب ابن باديس بعد نشرِ والده لـ«تكذيب إشاعة»، تعزيزًا لهُ: «بيان لا لبس فيه»، في «المنتقد» [العدد «١٣»، ٥ ربيع الأول ١٣٤٤هـ موافق ٢٤ سبتمبر ١٩٢٥م]، قال فيه: «وكما قد أدخل أيضًا علىٰ طرق شيوخ الزهد - التي ما دعا أهلها الأولون إلَّا إلىٰ تهذيب الأخلاق وتكميل الصفات وتطهير القلوب وتحلية النفوس - هذه البدع والدعاوىٰ ما أخرجها عن حقيقتها ورمىٰ بها ضد غايتها وصير أكثر المنتمين إليها علىٰ غاية البعد والمضادة لما كان عليه أولئك الشيوخ الأخيار...»، ثم ذكر عن هؤلاء الأتباع أنهم أخذوا أقوال وأفعال وأحوال شيوخ الزهد جملة «كما يؤخذ بما ثبت عمّن ثبتت له العصمة، أخذوا به من غير تثبت في النقل ولا عرض علىٰ الكتاب والسنة وهدي السلف ولا وزن بميزان الشرع، وما أشدّ غضبهم وحميتهم عندما تذكرهم بأن الشيخ الزاهد، وإن فاق أبا ذر والإمام العالم... غير معصوم من الخطإ في القول والعمل، وأنَّ الإجماع مشهور معلوم علىٰ أنه لا بد من الرجوع إلىٰ المعصوم، فيكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آيات الله في إثبات

=

العاصمة في حوالي سنة ١٩٢٠. وقد أنكر عليه بعضهم ذلك فيما بعد، فكان يجيب بقوله: «كنت ضالًّا فهداني الله».) اهـ.

أقول: ما صدَّرهُ بقوله أوَّلًا (رُوِيَ)، هو ثابتٌ كما سنُبيِّنُهُ قريبًا!، وأمّا المقولة المذكورة، فيؤيدها ما حكم به ابن باديس علىٰ الطرقيين من أنهم ضالُّون!؛ ففي «الشهاب» [م١٣، ج١، ١ محرم ١٣٥٦هـ/ ١٤ مارس ١٩٣٧م، (ص: ٢٦ - ٢٧)]، تحت عنوان: (من آثار علمائنا المصلحين في هذا العصر الحديث: العلامة الأستاذ الشيخ المكي بن عزوز رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، نقل ابن باديس كلمتين من كلمات هذا الإمام الذي كان (من أساطين الطرقية)، ثم أصبح سلفيًّا؛ وصدّرهما بقوله: (تذكيرًا لإخواننا الطرقيين بكلام من كان ضالًّا مثلهم ثم هداه الله، لعل أن يهديهم كما هداه، والله يهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم) اهـ.

هذا الأصل ولزوم العمل به... ولا أذهب بالقارئ بعيدًا ولا أحمله من هذا كثيرًا، بل أقتصر له علىٰ نقل واحد عن شيخ كبير عالم زاهد، وهو سيدي أحمد التيجاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فلقد قال: «**ما وجدتموه من كلامي موافقًا للكتاب والسنة فاقبلوه وما وجدتموه مخالفًا فاطرحوه**» أو ما هذا معناه فرحم الله هذا الرجل العظيم وأمثاله الصالحين وجازاهم عن الإسلام والمسلمين خيرًا، فلقد بروا ونصحوا ونجوا بهذه الكلمة ومثلها من كل تبعة تورط فيها المتورطون من بعدهم من عند أنفسهم»، ثم دعا «المنتمين إلىٰ شيوخ الزهد خاصة إلىٰ اقتفاء آثار شيوخهم، **والرجوع بالطرق إلىٰ ما أسست له وكانت عليه في زمانهم...**» اهـ.

أقول معلقًا:

إن ابن باديس هنا، يدعو هؤلاء ويخاطبهم باللين والرفق، ويحاول تصحيح مسار هذه الطرق المنحرفة «التي يزعمُ أصحابُها أنهم قائمون بأصل «الأخلاق»**!**»، **وتخفيف** غلوّ أتباعها في شيوخهم ومقدَّسيهم[١]، يخاطبهم بقوله «إخواننا»، ويقول: «قد رأيت بعض الواجب عليَّ بهذا البيان في غير عنف ولا وجل، أخًا مشفقًا، لا عدوًّا مخاصمًا، غير حامل بين جنبيّ لإخواني المسلمين «علم الله» غير الحبّ والحنان والنصح والإخلاص...»، فهو يحاولُ الآن معهم ليطرحوا كبائر الإثم والموبقات في الاعتقادات، وينفوا أوْضار الشرك القولي والفعلي والاعتقادي التي علقت بالتوحيد، ويُذَكِّرُهُمْ بكلام شيوخ الزهد الأولين، في أصول الأخلاق**!**،

(١) مِنْ ذلك ما استنكره منهم حين: (نسبوا إليهم التصرف في الكون وقد بيّن في غير ما آية من كتابه أن أشرف خلقه لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، وزادوا فقالوا: يعلمون الغيب. والقرآن ينفي ذلك عن محمد (ﷺ) وزادوا وزادوا... مما لا محل لتفصيله الآن) اهـ من مقالة (بيان لا لبس فيه).

هذا ما يريده - والله أعلم - من قوله: «الرجوع بالطرق إلىٰ ما أسست له»!، ولا يريدُ - بناءً علىٰ ما تقدم وما سيأتي من الدلائل الكثيرة - بالطرق تلكم الأوضاع وذاك «النظام» و«الهيكل» البدعي.

وإنْ أبىٰ عليَّ أحدٌ هذا الذي جعلته مرادًا للإمام ابن باديس!، فأقولُ: كان هذا تصوُّرًا للإمام في أول الأمر، ثمَّ جاهرَ بَعْدُ بما صار يعتقدُهُ «هو الحقّ» في هذه الطرق! وكلمات الإمام وتقاريظُهُ بعد هذا التاريخ خيرُ دليلٍ، فانتظرها عمّا قريب.

- وقد استشكل أحدُ تلاميذ الإمام «هو الشيخ أحمد حماني» «١٩١٥م - ١٩٩٨م»[(١)]، نسبة هذه المقالة: «**بيان لا لبس فيه**» للإمام ابن باديس**!**، ورجح أنها ليست لهُ، بأمور عدة؛ منها: «ورد فيها ذكر أحمد التيجاني مؤسس الطريقة المعروفة موصوفًا بأوصاف المدح والتنزيه، مع أن طريقته مفعمة بالبدع والخرافات التي تصد عن القرآن منها زعمهم أن صلاة الفاتح تعدل المرة الواحدة منها ستة آلاف ختمة من القرآن، واعتقاد مثل هذا كفر بواح. وكان الشيخ قد هاجم هذه الطريقة وأتباعها فلو صدقنا نسبة هذه المقالة له لأوقعناه في التناقض»[(٢)].

أقول:

١- ليس تناقضًا، فابن باديس الذي كان يتكلم ويكتب في مثل هذا التاريخ، رجلٌ لا زالت فيه بقيةٌ من حسن ظنٍّ بالطرق وشيوخها وأتباعها، ولا تزال فيه هيبةٌ وشيءٌ من التقديس للشيوخ! - فيما يبدو - ، وذلك أنه في سنة «١٩٢٥م»،

(١) **انظر ترجمته في**: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (٢/ ١١٠ - ١١٢) للحسن فضلاء، و«صراع بين السنّة والبدعة» (٢/ ٢٨٥ - ٣٠٧) لأحمد حماني.

(٢) مقدمة «آثار ابن باديس» (٦/ ١٢).

رافق الوفد الطرقي الرحماني، الذي شدَّ الرحل «من قسنطينة إلىٰ الجزائر» إلىٰ قبر ابن عبد الرحمن الخلوتي[1]، فانتقَدَ ! عليه ذلك تلميذُهُ: «مبارك الميلي»، الذي أمضىٰ انتقاده باسم «بيضاوي»[2]، جاء فيه: «الذي نراه لازمًا لنا هو سؤال الشيخ الأستاذ عما نسب إليه المكاتب من رحلته ضمن الراحلين من بلد إلىٰ بلد بنية التبرك بغير المعصوم... فإن كان غير صحيح فإنا نرغب من مجادلته أن يعلن ببراءته كي لا يتوصل أحد بعالميته إلىٰ أغراضه ولا تُؤكل الدنيا بسلفيته كما أكلت قبل بأدب الخليل. وإن كان صحيحًا وأن نية جنابكم ونية ذلك الجمع واحدة فنرغب منكم أن تطلعونا علىٰ مستندكم في هذا الفعل من عمل السلف - فإن المعلوم عنكم أنكم تترسمون آثار السلف - وتثبت لنا بنقل صحيح صريح أن منهم من قصد أعظمًا بالية يرتجي رحمتها ويتوسل بشمعها إلىٰ نيل أمانيه الدنيوية والدينية... لأنا لم نعلم - وفوق كل ذي علم عليم - عنهم إلا ما يخالف ما نسب إليكم... متفقين ومجمعين علىٰ أن شد الرحلة لزيارة غير المعصوم للتبرك غير سائغة مهما حسن القصد وخلت النية من نزعات الشرك... فإن كان هناك خلاف

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن أبي القاسم القشطولي (قبيلةً) الزواوي (إقليمًا) الأزهري (مجاورةً)، مؤسس الطريقة الرحمانية، وناشرُها في الوطن الجزائري، توفي سنة (١٢٠٨هـ=٩٣ - ١٧٩٤م) ودفن بمسقط رأسه: عرش آيت إسماعيل بجبال «جرجرة»، قيل: إنه نقل من قبره ودفن في عاصمة الجزائر حيث ضريحه ومقبرته المشهورة الآن بالجزائر العاصمة، وقيل العكس، وقيل: وُجد في القبرين!، لذا سمي من يومئذٍ: «بوقبرين» ! وبالفعل إلىٰ الآن له قبران أيهما يوجد فيه، الله أعلم؟. انظر: «تعريف الخلف» للحفناوي الديسي (٢/ ٤٥٧ - ٤٦٠).

(٢) «الشهاب»، العدد (٢)، (٢) جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٤هـ، موافق ١٩ نفامبر ١٩٢٥م، (ص: ١٥ - ١٦)،مقال: (نقد العلماء).

ما نعلم فإنا نرجو من فضيلتك أن تفيدنا به».

- وقد أجابه ابن باديس، وبعد أن ذكر مذاهب الفقهاء في مسألة زيارة قبور وأضرحة الصالحين وشد الرحل إليها، لأجل التبرك، ولم يرجح واحدًا منها، تكلم عن الزيارة بقصد طلب قضاء الحاجات... إلخ، وكذا التزام أوقات وأشكال مخصوصة، وذكر أنها مما «لا يتسع له صدر الدين، ولا مما كان في عهد السلف الصالحين...»، ثم ختم ذلك بقوله: «فخيرٌ لمن يريد السلامة بدينه أن يقتصر علىٰ المتفق عليه وحده أو مع إتيان المختلف فيه مع مبالغته في تحسين قصده وتمام تحريه. إلىٰ هنا أحسبني قد أديت واجب الأمانة في البيان، فإن أصبت فهو من فضل الله وإن أخطأت فهو مني ومن الشيطان، **وأمَّا عملي في خاصة نفسي في هذا الباب فالله يعاملني فيه علىٰ حسب نيَّتي وقصدي والله عالمٌ بقصد كلِّ عامل ومجازيه عليه**»!.[1] وقد قال «بيضاوي»«الشيخ مبارك الميلي» تعليقًا علىٰ ذلك - وهو في معرض مناقشة أحد الطرقيين الخلوتيين، في مسألة شد الرحل لأجل التبرك!**[2]** -: «... أمّا الشيخ لما أجاب حفظ لنفسه الحق في كتمان نيته» اهـ.

٢- الذي جعل «الشيخ أحمد حماني» يشكك بل ينفي نسبة المقال للإمام، هو ظنه: أنه بغير إمضائه؛ أيْ: خالٍ من الإمضاء!**[3]**، والحقيقةُ، أنه بإمضائه مؤرَّخًا كذلك، في صحيفة «**المنتقد**»: «**٢٣-٢-٤٤، عبد الحميد باديس**».

٣- الإمام ابن باديس **في أخرياته**، هاجم بشدةٍ الطريقة التجانية، ووضعها في

---

(١) «الشهاب» ، العدد (٤)، ١٦ جمادىٰ الأولىٰ ١٣٤٤هـ، موافق ٣ ديسمبر ١٩٢٥م/ «الآثار» (٣/ ٢٣٥).

(٢) «الشهاب» ، العدد (٨)، (ص: ١٦)، مقال: (علىٰ جواب «بيضاوي» الأخير).

(٣) أوقعه في هذا الوهم: أنه نُشِرَ في «آثاره» ، طبع وزارة الشئون الدينية - الجزائر، خاليًا من ذلك!

موضعها اللائق بها، **قال سنة «١٩٣٨م»**: «... إن الطريقة التجانية ليست كسائر الطرق في بدعها، والمشاهد اليوم من أضرارها، ودعنا من حديث ماضيها بما فيه، بل هي طريقة موضوعة لهدم الإسلام تحت اسم الإسلام؛ فإن كتبها وأقوال أصحاب صاحبها مطبقة علىٰ هذه الطوام وأكثر منها، فلا تجد في كتبهم ما هو خالص منها حتىٰ يمكن أن يكون هو الأصل وأن غيره مدسوس وإنك لتجد هذه الكتب محل الرضىٰ والقبول والتقديس عند جميع أتباع الطريقة عالمهم وجاهلهم. ولو كان عالمهم عاملًا بالكلمة المنسوبة إلىٰ صاحب الطريقة، والله أعلم بصحة نسبتها[1]: «زنوا كلامي بميزان الكتاب والسنة» - لأعدموا تلك الكتب أو حرموا علىٰ جماعتهم قراءتها أو حذفوا منها هذه الكفريات والأضاليل وأعلنوا البراءة منها للناس لكن شيئًا من ذلك لم يقع. **وإنما يُطَنْطِنُون بتلك الكلمة قوليًّا ويُقِرُّونَ تلك الكتب وما فيها عمليًّا، وماذا يفيد القول مع التقرير والعمل**» اهـ[2].

تدرُّجٌ ومرحليَّةٌ في سبيل إرجاعِ الضالِّين إلى الحقِّ:

- **لقد ظهر ممَّا سبقَ تَغَيُّرُ خطاب ابن باديس للقوم، «بين سنة ١٩٢٥م، وسنة ١٩٣٨م»:**

ممَّا يؤخذ منهُ: أَنَّهُ سلكَ مسلكَ المرحلية، وأخذ بالتَّدرُّج، والمرور علىٰ أطوارٍ في الإصلاح والنقد، والحاملُ لهُ علىٰ ذلك أسبابٌ عدَّةٌ، منها:

---

(١) يلاحظُ - هنا - أن ابن باديس لم يتعرض لصاحب الطريقة! ولم يهاجمه!، ويُلَاحظ أنه لم يَعُدْ يَصِفُهُ بصفات المدح والتعظيم كما فعل أولًا!! ثم إنه بعد ذلك كله، ترك خطاب الرفق واللين، وزمجر في وجوه القوم، بعد أن يئس منهم!!!

(٢) «الآثار» (٣/ ٣١٧).

- خطورة الوضع، والخوف من بطش الطرقيين ونفوذهم [**عند العامة وعند الحكومة!**]، إلىٰ أن يشتد ساعد الحركة الإصلاحية(١).

- أنَّ الإمامَ كان يراعي مركز والده والعائلة في هذا النظام الطرقي السائد آنذاك!!(٢).

- أَنَّهُ رأىٰ أن يُخفِّفَ الوَطْأَةَ علىٰ الشيوخ والرؤساء؛ حتَّىٰ يُخَلُّوا بينه وبين الأتباع والعامة المنتمين لهذه الطرق، ليتمكَّن من دعوتهم وإيصال العلم لهم. وهذا ما سَنُبْرِزُهُ قريبًا إن شاء الله تعالىٰ.

وغير ذلك من الأسباب التي قد تُذْكَر.

ولعله مما يرجع إلىٰ السببين الأوَّلين: أن أعداء الإصلاح، والناقمين علىٰ هذه الدعوة التي فاجأتهم، وتجرأت علىٰ مقدساتهم، جعلوا يحاربونها بسلاح الدعاية، فأشاعوا عنها في أوساط العامة، أنها تنكر التصوف من أصله، ولا تعترف بشيوخ الزهد الأولين وتطعن فيهم، و.. و.. إلخ، فكان ابن باديس يدفعُ عن دعوته الإصلاحية هذه التهم، ويحاولُ إفهام هؤلاء وأولئك، **ليقطع الطريق أمام الكائدين! الذين يريدون أن يحولوا بينها وبين الناس!**(٣)، **وهذا لا يخرج عما ذكرناه من سلوكه**

---

(١) «الشعر الديني» (ص: ٥٨٧) لعبد الله ركيبي.

(٢) المصدر السابق.

(٣) وقد ذكر الشيخ مبارك الميلي، ما عمل له أناسٌ من التظاهر (بحماية التصوّف والصوفيّة)؛ (لأنّ العامّة ومن قرب منهم إدراكًا يعتقدون أنّ الصوفيّة مطلقًا هم صفوة الخلق وهم وحدهم العُبّاد الزّهّاد وأنّ التسليم لأقوالهم وأحوالهم ونقد شيءٍ منها خسران) اهـ. «الشهاب»، المجلد (٩)، الجزء (٢)، شوال ١٣٥١هـ، فيفري ١٩٣٣م، (ص: ٨١)، مقال: (الصوفية ومراتب العبادة... رد هجوم علىٰ جمعية العلماء...).

مسلك التدريج في دعوتهم... فلا ينفعُ هنا وهم «أي: المصلحون» حديثو عهدٍ بإعلان هذه الدعوة الإصلاحية «وهي خطوة جريئة»، والعامة، والخاصة - أيضًا - حديثو عهدٍ بسماعها!، أن يُشهروا عليهم ابتداءً أنْ «**لا صوفية في الإسلام**»، علىٰ أنه وإنْ قلنا بإقرار الإمام ابن باديس بالتصوف، وعدم محاربته!؛ فإنه لا يطلق الكلام في تصويبه، بل له فيه تفصيلٌ، من تأمَّلَهُ عرفَ أنه لا يخرجُ عمَّا صرّح به الإمام الإبراهيميُّ - أخيرًا - أنْ «**لا صوفية في الإسلام**»! - علىٰ تبايُنٍ في طريقة ابن باديس وطريقة الإبراهيمي في عرضِ كلٍّ منهما لهذه الدعوة، ومخاطبتهِ لمخالفيها! -.

وهذا الشاهدُ من كلام ابن باديس علىٰ ما ذكرناه في أول هذه الفقرة، قال في تعليقةٍ له: «**قد أبان حضرة هذا الكاتب القدير عن حقيقة التصوف الإسلامي ومقام رجاله الأقدمين في العلم والعمل والتقوىٰ والفضيلة، وذكر ما أجمع عليه الجميع من وجوب عرض أصوله وأقوال أهله وأعمالهم علىٰ الكتاب والسنة، وبيَّنَ كيف اندس الدخلاء في أهله وهم أبعد الناس عنهم... وفي هذا كله ما يدحض ما يتشدق به الدجالون، ويجاريهم فيه المغرورون، من إنكار حزب الإصلاح الديني التصوف الإسلامي الحقيقي من أصله، وإنكاره علىٰ عامة أهله، ليصرفوا الناسَ عن سماع كلمة المصلحين، ويبغضوهم في دعاة الحق من السلفيين، ويوهموهم أنهم علىٰ طريق أولئك العلماء الزهاد سائرون، والله يعلم إنهم لكاذبون ويحق الحق بكلماته ولو كره المجرمون**» اهـ[1].

نَكِيرُ ابن باديس على «التَّصَوُّف» الأعجمي الفلسفي:

- وأسوقُ هنا، فقرةً مهمّةً - علىٰ طولها -، تُبرزُ موقف ابن باديس من التصوّف،

(١) «الشهاب»، العدد (٨٦)، (ص: ١٤)، ٢٧ شعبان ١٣٤٥هـ، ٣ مارس ١٩٢٧م.

بما لا يختلفُ عن موقف الإبراهيميِّ منه - وإن كان موقف هذا الأخير: أَصرحَ! -...

أسوقُهُ؛ لأن ابن باديس فصّلَ القول في هذا التصوّف، ممّا يقضي بحملِ كلماته الأخرىٰ - التي أوجز فيها القول، أو اقتصر علىٰ أحد جوانبه، أو أتىٰ علىٰ ذكر بعضه! - عليه، وإتمامِ القول فيها من خلاله، وسأُوضِّحُ ما أرمي إليهِ، بعد إيرادهِ، قال تحت عنوان: «**حول برنامج الشهاب**» [العدد «١٦٢»، «ص: ٢ - ٦»: ٢٢ ربيع الأول ١٣٤٧هـ، ٦ سبتامبر ١٩٢٨م]: «وأما الإصلاح فإننا ندعو إخواننا المسلمين إلىٰ الرجوع إلىٰ الهداية الإسلامية كما جاء بها محمد ﷺ، خالصة نقيةً مما أحدثه فيها المحدثون في العقائد والأقوال والأعمال، داعية إلىٰ الزكاء النفسي، والكمال الخلقي، والتفكير العلمي، والرقي العمراني، والعدل الاجتماعي، بيضاء نقية ليلها كنهارها لا يهلك عليها إلا هالك. وندعوهم إلىٰ أن يطلبوا هذه الهداية في القرآن الذي هو كتاب الإسلام، وسنة محمد ﷺ من أقواله وأفعاله وأحواله وسيره، التي هي بيانٌ للكتاب، وسيرة السلف الصالح في فهمهما والعمل بهما، فإنهم - والله - أصح أفهامًا، بفطرتهم العربية ومجالستهم للنبي ﷺ أو قرب زمانهم به، وأصفىٰ أذهانًا، وأقوىٰ إيمانا، وأزكىٰ نفوسا، وأطهر قلوبًا وأقل تكلفًا. وإذا اختلفوا - وما أقل اختلافهم في الهدىٰ، وإنما يختلفون في الأحكام - رددنا الخلاف إلىٰ الله ورسوله، إلىٰ الكتاب والسنة، كما كانوا يفعلون.

وندعوهم بمقتضىٰ ما تقدم إلىٰ طرح كل البدع والمحدثات في الدين، التي دنَّست محياه الجميل، وأوجدت للطاغين عليه من أعدائه السبيل، وحالت بينه وبين من يمكن اهتداؤه إليه - لو رآنا نمثله حقيقة - من غير أبنائه... ولما **كانت الطرائق المنتسبة إلىٰ التصوف** في حالتها المشاهدة تعجّ بهذه البدع عجًّا، والمتمسكون

بها يعتقدون اعتقادًا جزمًا، أنها هي الدين بل خلاصة الدين قطعًا، وأن ما خالف ما هم عليه هو البدعة شرعًا، وكان من ورائهم المتعيشون عليهم، المستغلون لجهلهم، يدعُّونهم في هذا الضلال دعًّا، ويصدونهم عن أهل العلم - إلا من سكت عنهم أو أيدهم - منعًا، صمدت هذه الصحيفة لهم تدعوهم إلىٰ الهداية الإسلامية الحقة، علىٰ الطريقة التي مضىٰ بيانها، ولو شاء الله واستمعوا لها لانقلبت زواياهم معاهد دينية حقيقية تدرس فيها علوم الإسلام، وطرائقهم جمعيات خيرية تخدم المسلمين من ناحية الدين، ولكن أنىٰ يكون ذلك وتلك الأموال عليها يعيش وينعم غالب أبناء الشيوخ، وبين تلك الطرائق من المنافسات والمنازعات ما يفضي في بعض الجهات إلىٰ مشاجرات ومقاطعات، تسيل فيها الدماء وتذهب فيها الأرواح. ضج المتعيشون من الزوايا والطرائق من هذه الدعوة وكبر عليهم وقعها، وخافوا علىٰ رياستهم المبنية علىٰ الجهل والخرافة أن يتصدع من العلم الصحيح ركنها... فأخذوا يرمون الدعوة الإصلاحية بالعظائم عند الأمة وحكومتها، من التقول عليها، والتشويه لسمعتها، والتحريف لكلماتها، والتضليل عن غايتها... ولما ظهرت علىٰ أنوار الحق ظلمات ضلالتهم، واندحرت أمام «شهب» كتاب الإصلاح - شياطين بدعتهم، طفقوا يحتجون لأنفسهم بذكر من ينتمون إليه من شيوخهم رَحِمَهُمُ اللَّهُ من مؤسسي الزوايا في زمان غير هذا الزمان، وعلىٰ حال نقطع أنها كانت في الجملة علىٰ غير ما هي عليه الآن، ويتعالىٰ بهم اللّجاج والادّعاء إلىٰ ذكر شيوخ الزهد الأقدمين عليهم الرضوان - وإذا عرض كاتب من كتاب هذه الصحيفة لما نسب لأولئك الشيوخ عليهم الرحمة من أقوال وأفعال لينظر في سند ثبوتها إلىٰ من نسبت إليه، وليزنها بميزان العدل الديني

من كتاب الله وسنة رسوله كما أمر الله في كتابه - صاحوا به! هذا نبش للقبور، هذا كلام في الأموات، هذا إنكار للتصوف من أصله، هذا إنكار على الأئمة المتقدمين - ويا سبحان الله!... قد صحت عن جمع من أئمة العلم والزهد الوصاية بعرض ما يجيء عنهم على الكتاب والسنة ليقبل ما وافق ويرد ما خالف، وقَبْلَ هذه الوصاية منهم كان الأصلُ الذي هو معتمدُ الجميع: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩].

فنحن بحمد الله - أسعد بكتاب الله ووصاية عباد الله الصالحين منكم، إن كنتم تعلمون. **ثم هاتوا لنا لفظ التصوف ومعناه،** فقد طال تعاظمكم على العامة ومخادعتكم لهم بانتسابكم إلى أهله، وأنتم أبعد الناس عن أصل من أول الأصول المقررة فيه وهو الزهد فيما أيدي الناس. وأنتم - ولا نكران - أحرص الناس على ما في يد الغير وأَشْرَهُهُمْ إليه، إلا من ندر منكم، **وأنا لا أعرفُ هذا النادر إن كان.** طال تعاظمكم هذا كما طال تنفيركم للعامة عن المصلحين بأنهم ينكرونه من أصله، وأنتم كلكم أو جلكم لا تعرفون ما ينكرون وما يثبتون وتكادون لا تفقهون ما يقولون أو تعاندون فيما تفهمون. **التصوف - يا إخواننا - من الأسماء الاصطلاحية المحدثة،** أراد به قوم - علميًّا - ما يتعلق بأعمال القلوب كالزهد والصبر والرضاء من الأحكام، و- عمليًّا - تهذيب الأخلاق وترويض النفوس على التخلي عن كل رذيلة، والتحلي بكل فضيلة، مع ملازمة السنة ودوام الإخلاص. وهذا معنى إسلامي صحيح، مبثوثٌ في آيات القرآن وفي كتب الأثر، ككتاب الأدب وكتاب الاعتصام من الجامع الصحيح وغيرهما من الوجهة العلمية، وفيما ثبت من سيرة النبي ﷺ وسيرة أصحابه من الوجهة العملية،

والمتكلمون فيه - من الذين ثبت علمهم وعدالتهم - يتفقون ويختلفون ويُصيبون ويخطئون؛ وإلىٰ الله ورسوله يرد خلافهم كما يرد خلاف غيرهم من المتكلمين في علوم الإسلام، والكتاب والسنة الحكم علىٰ الجميع. **وأراد بلفظ التصوف قومٌ آخرون أوضاعًا وضعوها من عند أنفسهم لا تجد عليها نصًّا صريحًا صحيحًا من كتاب الله ولا سنة رسوله ولا من سيرة القرون الثلاثة: من نظريات فلسفية زائغة أفضت إلىٰ عقيدة الحلول والاتحاد؛ وعقائد باطنية في الديوان ورجال الغيب جعلت أمر العوالم كلها في يد جماعة من الخلق ما أنزل الله بها من سلطان. حتىٰ جعلوا لمن سمّوه غوثًا تصرفًا عامًا في جميع المخلوقات كعموم القدرة حتىٰ قالوا: إنه لا يثب هِرٌّ علىٰ فأر إلَّا بإذنه. وأعمال سامرية في الرقص وآلاته جعلوا بها الدين لهوًا ولعبًا، وكلمات مدسوسة علىٰ النبي ﷺ وعلىٰ عباد الله الصالحين زورًا وكذبًا إلىٰ ضلالات وجهالات نسكوا بها - كما كان يقول السلف الصالح - نسكًا أعجميًّا؛ وتصوفوا بها تصوفًا هنديًّا؛ وجاء طمّها ورمّها مع من انتمىٰ إلىٰ التصوف من الجاهلين؛** حتىٰ آلت الحالة النكراء التي استعملت فيها هذه النسبة آلة لأكل أموال الناس كما نراه في غالب المعاصرين. والتصوف بهذا المعنىٰ الذي أفضىٰ إلىٰ هذه الأحوال - هو محطُّ إنكار المنكرين من المتقدمين والمتأخرين، **وباشتراكه مع المعنىٰ الصحيح المتقدم في لفظ واحد التبس الأمرُ علىٰ كثير من الناظرين، ووجد الكائدون للإسلام السبل للدَّسِّ علىٰ المسلمين.**

هذا بيان وجيز للمعنىٰ الصحيح من لفظ التصوف الذي نقبله والمعنىٰ الباطل الذي نرده، يملأ عيون الذين ينظرون الأمور نظر الحق والإنصاف، ويسد أفواه الذين يريدون التشغيب علىٰ المصلحين بما لا يعلمون، ويفهم الذين استنكروا علىٰ

«الشهاب» أن يشير إلىٰ انقسام التصوف إلىٰ شرعي وبدعي ما يريد... والله نسأل الإخلاص في أعمالنا؛ والخلاص من شرور أنفسنا، والهداية إلىٰ الصراط المستقيم.
قسنطينة: ١ - ٣- ١٣٤٧ عبد الحميد بن باديس» اهـ.

- **ويقول الشيخ ابن باديس في: «تفسيره»**[١]، وهو يتكلم عن هجر المسلمين للقرآن**!**؛ قال - وهو يشير إلىٰ أهل التصوف المحدث؛ الذي يُعَرِّفُونه بأنه: «علم الأخلاق والتزكية**!**» -: «بين القرآن مكارم الأخلاق ومنافعها، ومساوئ الأخلاق ومضارها وبيّن السبيل للتخلي عن هذه والتحلي بتلك، مما يحصل به الفلاح بتزكية النفس والسلامة من الخيبة بتدسيتها. **فهجرنا ذلك كله، ووضعنا أوضاعًا من عند أنفسنا، واصطلاحات من اختراعاتنا، خرجنا في أكثرها عن الحنيفية السمحة إلىٰ الغلو والتنطّع. وعن السنّة البيضاء إلىٰ الأحداث والبدع، وأدخلنا فيها من النسك الأعجمي، والتخيّل الفلسفي ما أبعدها غاية البعد عن روح الإسلام**، وألقىٰ بين أهلها بذور الشقاق والخصام، وآل الحال بهم إلىٰ الخروج من أثقال أغلالها، والاقتصار علىٰ **بقية رسومها** للانتفاع منها، ومعارضة هداية القرآن بها» اهـ.

موقفُ الطرقيين من جولاتِ ابنِ باديس «السَّلفيّ»:

قد عرف الطرقيُّون ابن باديس «في زمانه الأوَّل» «**معتقِدًا**»، وكان فيهم محترمًا مقدَّمًا، وقد أقضَّ مضاجعهم أن يروهُ «بعد زمانٍ» «**سلفيًّا**»، «**منتقِدًا**»، مكتسحًا أضاليلهم، هادمًا أباطيلهم، فلم يُسامحوهُ علىٰ «جنايته»؛ فالاعتقادُ عندهم ولاية، والانتقادُ جناية، وقد جعل الطرقيون - بعد اشتداد الصراع بين ابن باديس

---

(١) «تفسير ابن باديس» (ص: ٢٨٢)، ط: دار الفكر، إعداد: د: توفيق شاهين، ومحمد الصالح رمضان.

وإخوانه المصلحين، وبين مشايخ الطرق ورؤساء الزوايا - ، يعمدون إلىٰ الردّ علىٰ ابن باديس خصوصًا، بتذكيره - متهكّمين! - بطرقيّته القديمة، ومشاركته لهم فيها، وفي اجتماعاتهم لقراءة الموالد وغيرها، وشدّ الرحال لزيارة قبر ابن عبد الرحمن الخلوتي الأزهري في العاصمة، وغيره من أضرحة الصالحين! بل وعمدوا إلىٰ نشر قصائد له في مدح الطرقية وشيوخها قالها في أول أمره!، كما نشروا كتاباتٍ له «قديمة» علىٰ حلقات - في صحفهم التي أنشئوها لمحاربة المصلحين - في آداب الطريق وسلوك المريد وغير ذلك!! هكذا فعل الطرقيون لما أَعْيَتْهُمُ الحجج، وأوشك بنيانهم علىٰ الانهيار والسقوط.

- **يقول مكاتب جريدة: «الرشاد»** [لسان حال جامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفية] في عددها «٢٠» [٣ رمضان ١٣٥٧هـ، ٢٧ أكتوبر ١٩٣٨م] بعنوان: «**الشيخ ابن باديس في المرآة...**»، «ص: ٤»: «نشأ الشيخ ابن باديس طرقيًّا صميمًا، وتعلم علىٰ أشياخ طرقيين... وقضىٰ الشيخ بعد تحصيله علىٰ الجائزة - العلمية الدينية - أكثر من عشرين سنة في الاختلاط برجال الطرق الصوفية، والخضوع لأشياخهم معترفًا باسم العلم والدين بما للزوايا والطرق الصوفية من فضل علىٰ بقاء الإسلام في الجزائر إلىٰ هذا العصر! وقد كان الشيخ وهو يحمل الجائزة الزيتونية يرافق رجال الطرق الصوفية في رحلاتهم البعيدة ويشد الرحال معهم لزيارة المشائخ الأموات، والتوسل بهم عند أضرحتهم، وكان ينظم قصائد المديح في أولئك الأشياخ، ولا تزال قصائد المديح التي نظمها الشيخ ابن باديس إلىٰ الآن بأيدي أتباع الطرق الصوفية في قسنطينة. فمن ذلك قصيدته مدح العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري، ومنها قصيدته في مدح العلامة الشيخ عبد القادر

الجيلاني أو الجيلي وغيرهما. ومما لا يزال مسجلًا علىٰ الشيخ ابن باديس أنه وقف في جمع كبير وسط احتفال بالزاوية الرحمانية بقسنطينة وألقىٰ - باسم العلم والدين - قصيدة صوفية في مدح الشيخ محمد ابن عبد الرحمن ورفع صوته عاليًا وأقسم بالله العظيم - وهو يعرف قيمة الله - طبعًا علىٰ أن كل بيت من قصيدته تلك مقتبس من حديث صحيح في البخاري ومسلم! وهذه القصيدة تحت أيدينا الآن ونعد القراء بنشرها بعد الآن إن شاء الله،... وجاءت سنة ١٩٢٥ فبدا للشيخ ابن باديس أن يكون قوة يحتل بها جمهور الشعب الجزائري الوديع ويصبح رئيسه الأعلىٰ...» إلخ، ويقول في [عدد «٢٣»، ١٧ نفامبر ١٩٣٨م، «ص: ١»]، بعد أن نقل قطعة من كلام قديم للشيخ ابن باديس: «عندما كان عالمًا طرقيًّا صوفيًّا صميمًا كتبه تحت عنوان: «الطرق الصوفية، الفصل الخامس في التلامذة والمريدين وأمضاه باسمه الصريح بعدد (٤٣) من جريدة النجاح الصادر بتاريخ يوم الجمعة ٢ ربيع الأول سنة ١٣٤٠هـ، الموافق لـ: ٤ نفامبر سنة ١٩٢١م. هكذا كان الشيخ ابن باديس الطرقي الصوفي يصف رجال الطرق المسلمين الصوفيين، وهكذا كان يشهد لهم باسم العلم الصحيح؛ والدين النقي وهكذا كان يقرر عنهم في دروسه وهو في صحة من عقله وبدنه، ويحمل الجائزة الزيتونية أيضًا...» إلخ.

أقول معلِّقًا: قَدَّمْنَا من قبلُ تصريح ابن باديس بأن «الشيخ المكي بن عزوز» كان ضالًّا! ثم هداه الله، حيث صار سلفيًّا مُوَحِّدًا؛ - يُقَرِّرُ أن التوحيد الخالص إنما يكون بدعاء الله وحدهُ - ، بعد أن كان طرقيًّا؛ - يدعو إلىٰ الاستغاثة بالأولياء ويُرَغِّبُ في دعائهم! -. وقد شهد ابن باديس - أيضًا - علىٰ نفسه؛ بأنه كان

ضالاً، يقول الشيخ حمزة بوكوشة «م: ١٩٠٦م - ت: ١٩٩٤م»[(١)] في مقالته: «**الشيخ ابن باديس والطرقية**»: «ولقد ظن بعض أنصار الطرق والزوايا من الفقهاء أنه يستطيع إفحام عبد الحميد فقال له: أنت تنتقد علينا اليوم ما كنت تُقِرُّهُ بالأمس ولا تُنْكِرُهُ، فما هذا الانقلاب؟ فما كان من عبد الحميد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا أن قال له: **كنت ضالًّا فهداني الله، ونسأل الله لك الهداية**» اهـ[(٢)].

طرقيَّةُ ابنِ باديس: حقيقةٌ عن اقتناع، أم مُنَاوَرَةٌ وتظاهر؟!:

- لقد كشفَ بعضُ تلاميذ ابن باديس ورفاقِهِ في قضية «طرقيّته»، عن أمرٍ يدعو للغرابة؛ وهو أن ابن باديس لم يكن طرقيًّا علىٰ الحقيقة، ولم يؤمن يومًا من الأيام بخرافاتها وأباطيلها، وما كان منقادًا لها في الظاهر عن اقتناعٍ بها وأنها من الدين، أو هي الدين!، بل أرجعوا ذلك إلىٰ كون ابن باديس رآها وسيلةً لتحقيق أهدافه وآماله الإصلاحية، فأظهر أنه منهم وما هو منهم!، وسايرهم ليتيسَّر له العملُ دون واشٍ ولا رقيب!، وهذه نقولاتُهم:

- قسَّمَ الشيخ أحمد حماني في كتابه «**صراع بين السنة والبدعة...**» «١/ ٥٩ - ٦٠» دعوةَ الشيخ إلىٰ طورين:

قال: «الطور الأول المرسوم في الخطة هو تكوين نشء علمي، يعني جنودًا للدعوة العامة»، وقال: «**ولما آن بدء الطور الثاني حاول أن يُكَوِّنَ جمعية للعلماء عام ١٩٢٤م**».

---

(١) **انظر**: ترجمته في: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (٢/ ٦٢ - ٦٥) للحسن فضلاء، ومقال: «الشاعر الناقد: الشيخ حمزة بوكوشة»، أعدَّه: سمير سمراد، نشر في مجلة «الإصلاح»، العدد (٩)، جمادىٰ الأولىٰ/ جمادىٰ الآخرة ١٤٢٩هـ الموافق لـ: ماي/ جوان ٢٠٠٨م، (ص: ٦٥ - ٧٥).

(٢) جريدة «الشعب»، العدد (٢٢٨٠): الخميس ١٠ صفر ١٣٩٠هـ، ١٦ أبريل ١٩٧٠م، (ص: ٧).

يقول ابن باديس عن الطور الأول: «لما قفلنا من الحجاز وحللنا بقسنطينة عام ٣٢ [هجرية]، وعزمنا علىٰ القيام بالتدريس... ومضينا علىٰ ما رسمنا من خطة[1]، وصمدنا إلىٰ ما قصدنا من غاية، وقضيناها عشر سنوات في الدرس لتكوين نشء علمي لم نخلط به غيره من عمل آخر».

ثم يقول عن الطور الثاني: «فلما كملت العشر وظهرت - بحمد الله - نتيجتها، رأينا واجبًا علينا أن نقوم بالدعوة العامة إلىٰ الإسلام الخالص، والعلم الصحيح، إلىٰ الكتاب والسنة وهدي صالح سلف الأمة، وطرح البدع والضلالات ومفاسد العادات، فكان لزامًا أن نؤسس لدعوتنا صحافة تبلغها للناس، فكان «المنتقد»، وكان «الشهاب» [سنة ١٩٢٥م]...»[2].

يقول الشيخ أحمد حماني: «... وقد حكم بأن الطرق الصوفية ومشايخها «منبعٌ لكثير من هذه المهلكات». ولكنه لم يشأ أن يفاجئهم بالإعلان العام لهذا أثناء الطور

---

(١) يحدثنا الشيخ أحمد حماني عن بداية شيخِهِ الإمام ابن باديس، فيقول: (شرع في التعليم بجد واجتهاد ونشاط... فالدروس العامة - ومنها التفسير والحديث - كان يلقيها في الجامع الأخضر وقد استطاع أبوه - الذي كان نائبًا - أن يحصل له علىٰ رخصة من كاتب الولاية، ودروس الطلبة كان يلقي بعضها في مسجد «سيدي قموش» - وهو مسجد لعائلته يوجد بوسط المدينة، وقد جدد بناؤه من بعد عام ١٩٢٤م - وكان يدعو هؤلاء الطلبة إليه، ويسافر لاستجلابهم - كما قص علينا الشيخ الهادي السنوسي في كتابه «شعراء الجزائر» بأنه زار بلادهم عام ١٩١٧م، لهذا الغرض، أي بعد نحو عامين ونصف من شروعه، وكان يَبُثُّ فيهم أفكار الإصلاح... ولم يكن يعمل دون تخطيط، بل خطّط لإعلان الدعوة العامة وقدّر لها ١٠ سنوات) اهـ. انظر: «صراع بين السنة والبدعة (٢/ ٢٣٥ - ٢٣٦).

(٢) جريدة «السنة» ، العدد (٣)، ٢٩ ذي الحجة ١٣٥١هـ/ «الآثار» (٥/ ١٠٢).

الأول. واضطر أن يصانعهم - ليتمكن منهم - بما لا يضر المبدأ، وأنه يدخل في «قطعانهم» فظنَّ بعض «السذج» أنه كان منهم! وتجرَّأ صاحب «حياة كفاح» فزعم أنه السبب في «هدي» ابن باديس![1] وإنقاذه من الطرقية! وإذا أردنا شهادة صحيحة في الموضوع فلنعد إلىٰ ما كتبه بقلمه وهو كثير، وإلىٰ ما كتبه تلاميذه عنه مثل الأستاذ محمد الهادي السنوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2] الذي ارتحل إلىٰ قسنطينة في بداية الطور الأول عام ١٩١٦ - وما بعدها إلىٰ نحو ثمان سنوات - فقد شهد أنه طهّر عقله من الخرافات والضلالات الطرقية، وسجل ذلك في ترجمته لنفسه في كتابه:

---

(١) **توضيحُ ذلك**: أنّ أحمد توفيق المدني في مذكّراته: «حياة كفاح» (٢/ ٦٩ - ٧٠) ذكر عن نفسه أنّه حضر أواخر شهر يولية سنة (١٩٢٥م)، حفلة الوفد الرحماني الذي انتقل من قسنطينة إلىٰ العاصمة، في مقبرة «ابن عبد الرحمن» بالحامة. لم يُخْفِ أحمد توفيق المدني اشمئزازه ممّا رآه، وكتب: (حفلة طرب فوق أجداث الأموات). ثمّ كتب (٢/ ١١٢ - ١١٣) يتحدّثُ عن دوره في تأسيس «نادي الترقي» بالعاصمة، وأنّه افتتحه في ٣ جويلية ١٩٢٧م، ثمَّ دعا إليه الشيخَ ابنَ باديس، يقول: (وطلبتُ إليه أن يفتتح سلسلة المحاضرات العامة بالنادي، فلبىٰ الطلب بسرور واعتزاز، وكان يوم ٢٥ جويلية موعدًا لإلقاء أول محاضرة، وكان عنوانها: «الاجتماع والنوادي عند العرب» وتهاطل سيل الشعب نحو قاعة النادي... وقلت لابن باديس: أهذا خير، أم اجتماع الطريقة الرحمانية بين الدفوف وآلات الطرب فوق قبور الأموات؟ قال: هذا عمل أرجو أن يسجله لك الله في سجل الحسنات) اهـ.

(٢) ولد سنة (١٩٠٢م) ببلدة «ليانة»، قرب «بسكرة». تتلمذ علىٰ الإمام ابن باديس في قسنطينة، وتولىٰ مأموريّة: «متجوّل» جريدة «المنتقِد»، ثم «الشهاب»، وأصدر سنة (١٩٢٦م) الجزء الأول من كتاب «شعراء الجزائر في العصر الحاضر»، ثم الجزء الثاني في السنة التي تليها، وقد طُبعا في تونس. توفي سنة (١٩٧٤م). انظر ترجمته في: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ١٧٨ - ١٨٠) للحسن فضلاء.

«شعراء الجزائر في العصر الحاضر»...» اهـ.

قلت: ولعل الذي يؤيّد كلام حماني، هو ما ذكره الإبراهيمي عن اجتماعاته بابن باديس في المدينة؛ أيام كان هذا الأخير بها «سافر للحج عام: ١٣٣١هـ، الموافق ١٩١٣م»؛ حيث: «كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تدبيرًا للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضات الشاملة التي كانت كلها صورًا ذهنية تتراءىٰ في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله علىٰ أن تلك الليالي من سنة ١٩١٣ ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولىٰ لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة ١٩٣١م»[١]، وذكر الإبراهيميُّ أن رجوع الشيخ ابن باديس إلىٰ الجزائر من سنته تلك، ثم لحوقه هو به بعد ذلك؛ تحقيقًا لموعدته إياه، كان الهدفُ منها العمل علىٰ: «إحياء الدين والعربية، وقمع الابتداع والضلال، وإِنْكَاء الاستعمار الفرنسي»[٢].

أقولُ: لهذا قال حماني وغيره: إنَّ ابن باديس مُذْ وَضَعَ المخطط «وجالت في رأسه فكرة الإصلاح» وشرع في تنفيذه، لم يكن برأسه شيءٌ من تلكم الأضاليل الطرقية، لكنه لم يشأ أن يفاجئهم!، ولوْ كان لا يزال طرقيًّا **عقيدةً وقناعةً، وظاهرًا وباطنًا!، لَمَا كان هناك أيُّ معنىٰ! لذلكم «التخطيط البعيد المدىٰ»، ولا معنىٰ لتدارسه مع الإبراهيمي وضعَ الجزائر، وتفكيرهما في العمل علىٰ القضاء علىٰ الأوضاع الطرقية المشئومة، ثم القضاء علىٰ الاستعمار الغاشم!**

---

(١) «آثار الإبراهيمي» (٥/ ٢٧٨).

(٢) (المصدر نفسه).

- وقد نحا الشيخ حمزة بكوشة في مقالته «**الشيخ ابن باديس والطرقية**»[١] نحوَ الشيخ حماني، مؤيدًا هذه الوجهة!، ويبدو أنهما لم يسمعا ذلك من الشيخ مباشرة، وإنما استلهماه من تتبع مواقفه وكتاباته - والله أعلم - ؛ قال: «كان العالم المسلم في الجزائر، في القرن السالف وفي أوائل هذا القرن، لا يستطيع أداء مهمته من وعظ وإرشاد، والسعي في إصلاح العباد إلَّا إذا كان ينتسبُ إلىٰ طريقة من الطرق الصوفية المنتشرة في البلاد؛ لأن العقيدة الراسخة في النفوس، أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه، وهيهات أن يتبع الناس أو ينقادوا لمن شيخه الشيطان، كما أن من صدق المريد وإخلاصه أن يكون بين يدي شيخه، كالميت بين يدي غاسله، ولن يبلغ مراده بدون ذلك، والعالم مهما بلغ من العلم والفهم لا يجد في مجتمعه أنصارًا ولا من يسمع إليه ويقتدي به، إلا إذا انتسب إلىٰ طريقة من الطرق الصوفية، ولو أن انتسابه لها متخذ كجواز مُرور ليس غير، لهذا نجد في ذلك العصر لا يستطيع أحد أن يتنكر لجميع الطرق ولا يعتنق واحدة منها، إلَّا إذا اعترف بأخرىٰ أو احتمىٰ بها، أما نكرانها جميعًا وعدم الانتساب إلىٰ واحدة منها فهو يؤدي إلىٰ الرمي بالمروق من الدين والإلحاد فيه، لهذا يأخذ بعض العلماء المصلحين بالتقية وينتسبون إلىٰ إحدىٰ الطرق رغم ما فيها - والغاية تبرر الوسيلة[٢] - ليستطيعوا أداء مهمتهم في المجتمع **من غير واشٍ ولا**

---

(١) جريدة «الشعب»، العدد (٢٢٨٠)، الخميس ١٠ صفر ١٣٩٠هـ/ ١٦ أبريل ١٩٧٠م/ ص: (٧).

(٢) **تعليقي**: نُبرِّئُ العلماءَ المصلحين - ومنهم الإمام ابن باديس - مِنْ أن ينتهجوا في دعوتهم هذا المسلكَ (أعني: مسلكَ الغاية تبرِّرُ الوسيلة) الذي ابتدعته أفكارٌ كافرة، وسنَّتْهُ لضعفاء العلم والدين دعواتٌ ماكرة فاجرة، أمَّا من كانوا في نهجهم ودعوتهم ينتهجون منهجَ الإسلام، =

رقيب[(١)]. ومن هؤلاء العلماء المصلحين **فيما يبدو** الشيخ عبد الحميد بن باديس رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان في مستهل حياته العلمية ينتسب للطريقة الخلوتية أو يحتمي بها، حيث كان يأتي من قسنطينة إلىٰ الجزائر مع ركب سيدي امْحمد بن عبد الرحمن، حيث يجتمع الإخوان لأداء طقوسهم وأذكارهم بالضريح الذي يشدّون الرحال إليه، والشيخ عبد الحميد بن باديس في طليعتهم، وما زال بعض الشيوخ في الجزائر الآن علىٰ قيد الحياة ممن شاهدوا ذلك. وبين أيدينا رسالة اسمها المنظومة الرحمانية للشيخ باش تارزي طبعت بمطبعة النجاح بقسنطينة سنة ١٩٢٣م ذيلت بكلمة الشيخ عبد الحميد باديس بصفته مصححًا [**الأربعاء ١٤ شوال عام**

=

ويقتفون أثرَ النبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنهم يهجرون الباطل ويجتنبونه، ولا يقيمون عليه بعد أن عرفوا بطلانه، ويَدْعُونَ الخلقَ إلىٰ الحقِّ علىٰ حسب الاستطاعة، وبقدر ما يطيقون، لا أن يبقوا في الباطل ويقيموا عليه (ظاهرًا) بحجة أنهم يتوصلون بذلك إلىٰ تبليغ دعوتهم وتحقيق غاياتهم، [فإنَّهُ لا يُتوصَّلُ إلىٰ طاعةِ الله بمعصيَتِهِ]. ويُنْظَرُ لمزيدِ بيانِ فسادِ المسلك المذكور: «معجم المناهي اللفظية» لبكر أبو زيد (ص: ٤٠٣).

(١) **ذَكَّرَتْني هذه الكلمة**: بالشيخ «المكي بن عزوز» ؛ فإنه قال الكلمةَ نفسَهَا في إحدىٰ مكاتباته وهو يذكُرُ توبته، وإبصاره الحقيقة، وتمذهبه بمذهب السلف ظاهرًا وباطنًا، كما ذكر ما كانوا عليه في البلاد المغاربية، وأنه ما تمكَّنَ من معرفة الحق إلَّا وهو في المشرق!؛ حيثُ: (لا واشي ولا رقيب)، مشيرًا إلىٰ أنه ما كان ليعرف الحقَّ لو بقي هنا!، وضرب أمثلةً لذلك، منها ما كان عليه الشيوخ من منع تلاميذهم ومريديهم من الاتصال بأي كتابٍ من الكتب التي صُنِّفَتْ علىٰ غير طريقتهم!... انظر: مقال: (الشيخ المكي بن عزوز، واهتداؤه إلىٰ السلفية)، أعدَّه: سمير سمراد، نُشر في مجلة «الإصلاح»، السنة الثانية، العدد الثاني عشر، ذو القعدة وذو الحجة ١٤٢٩هـ / نوفمبر وديسمبر ٢٠٠٨م، (ص: ٥٦ - ٦٩).

١٣٤١]... أشاد بناشر الرسالة شيخ شيوخ الطريقة الخلوتية بقسنطينة، وأثنىٰ عليه طيب الثناء...»[1]. فقد يبدو لمن يقرأ هذه الكلمة ولولا ذلك ما اهتم بهذه الرسالة ولا لبَّىٰ من طلب الإعانة علىٰ نشرها غير أننا من هذه الكلمة نستنتج أن الرجل كان طرقيًّا [...] لم يكن من الطرقيين الذين يظنون أن مجرد الانتساب والانتماء للأولياء والصالحين يكفيهم مئونة العلم والعمل بل هو يرجو من الإخوان أن يتذكروا ما يجب عليهم وأن مجرد الانتساب لا يكفيهم ولا يُغنيهم وكلمة مثل هذه بالنسبة للزمان والمكان الذي قيلت فيه، وبالنسبة إلىٰ من قيلت إليه، تعتبر كلمة جارحة وتشعر بالتمرد عن الطرق المتصوفة، لأنها تناقض قولهم: اعتقد ولا تنتقد، وسلّم تسلم. فكل من خالف أقوال الشيوخ وأفعالهم من كتاب أو سنة فهو مُؤَوَّل ومصروف عن ظاهره اتباعًا لأهوائهم...» اهـ.

أقول: بناءً علىٰ ما استظهره بوكوشة من مقدمة التصحيح المذكورة: يكونُ ابن باديس طرقيًّا لا شكّ في ذلك، لكنه كان - **في بادئِ الأمر** - مصلحًا في الطرقيين، أو من أبناء الطرقية الذين يُريدون إصلاحها**!** [من أمثال: الشيخ زروق، والشيخ ابن الفكون وغيرهما، ممن يُدْعَوْنَ عند بعض الكتاب المعاصرين بالسلفيين**!**، فيقولون مثلًا: سلفية زروق، أو سلفية ابن الفكون...][2]، ليجِدَ ابن باديس نَفْسَهُ

(١) **انظر**: مقدمة التَّصحيح، في «آثار ابن باديس» (٦/ ١٦ - ١٩).

(٢) **انظر**: مجلة «الأصالة»، [س٦، ع٥١، (ص: ١٤ - ٣٢)]، مقال المهدي البوعبدلي: (عبد الكريم بن الفقون القسنطيني، والتعريف بتأليفه: «منشور الهداية، في كشف حال من ادعىٰ العلم والولاية»)، و[س٧، ع٥٣، (ص: ٢١ - ٣٥)]، مقال للمهدي البوعبدلي - أيضًا -: (عبد الرحمن الأخضري، وأطوار السلفيّة في الجزائر)، ومؤلّف الدكتور أبي القاسم سعد الله: (شيخ الإسلام: عبد الكريم

- بعد إعمال الفكر والنظر والاستقلال فيهما، والاحتكام الحقيقي إلىٰ الكتاب والسنة وإجماع أهل القرون الثلاثة الأولىٰ - ، متبرِّئًا منها، حاكمًا عليها بالبدعة من أصلها، لا يلوي عليها!

وحتىٰ يُحَلَّ الإشكالُ العارضُ والمذكورُ آنفًا؛ أقول:

١- **إنَّ كَوْنَ ابن باديس**: ذاك المدرِّس الذي خطط للدعوة العامة، لا يمنعُ من أن يكونَ لا يزالُ علىٰ ارتباطٍ بهذه الطرقية، وهو في أثناء ذلك كله يعملُ شيئًا فشيئًا بما انتهىٰ إليه علمُهُ، وأعانته أوضاعُ الناس واستعداداتهم، علىٰ نفي ما يراه من البدع والضلالات؛ فينفي الغليظ منها المصادم للأصول والقطعيات، ليأتي بعدها علىٰ ما هو دونه!، وهكذا... وقد يُوَفَّقُ في إنكار بعض البدع، ولا يوفق في إقرارِ بعضٍ آخر منها![1]. وتجد في كتابات أمثال الشيخ زروق والشيخ ابن الفكّون نكيرًا علىٰ كثيرٍ من البدع التي تقع من الناس في زمانهم، وتشديدًا في النّكير علىٰ أهل الدعاوىٰ من أهل الطريق!، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يصف حَمْلَتَهُمْ هذه بالسلفيَّة! وهم من الطرقيين!

ثم أمرٌ آخر بدا لي، وهو:

٢- **أن ابن باديس قد لا يكون أولًا**: بدأ في معارضة القوم في أمور ومسائل، قدْ وجدَ ووجدوا لهم عند بعض العلماء والفقهاء القدامىٰ ما يتشبَّثُون به!، يظهرُ ذلك في مسألة شد الرحل لزيارة قبور العلماء والصلحاء من الأموات!للتبرك؛

=

الفكُّون: داعية السّلفيّة). قلتُ: زرّوق كان شاذليًّا، ومن أتىٰ بعده كالأخضري، والفكُّون، كان علىٰ الطريقة الشاذليّة والطّريقة الزرّوقيّة!

(١) كمثل مسألة شدّ الرحال إلىٰ قبور الصالحين، والانتفاع بقبر النبي ﷺ!!

فقد ذكر أقوالَ العلماء في المسألة واستدلالَ كُلٍّ منهم، وقد أشعرنا جوابُهُ: - عن استثناء ابن العربي قبر النبي ﷺ في بدعية الزيارة بقصد انتفاع الحي من الميت، بقوله: «وإنما استثنىٰ ابن العربي القبر الشريف للأحاديث الواردة فيه المرتقية بمجموعها إلىٰ رتبة الحسن والصحيح»![1]، وكذا ذِكْرُهُ مأخذ بعض العلماء في

(١) نقلَ ابنُ باديس كلامَ ابن العربي من كتابه: «القبس في شرح موطإ مالك بن أنس» (٣/ ١١٥٧ - ط: دار الغرب الإسلامي)، ولم أجد فيه تعليلًا من ابن العربي للاستثناء المذكور! فلعلّ ابنَ باديس اجتهدَ في الاستدلالِ لكلامِهِ وبيانِ مأخذِهِ فيه، والله أعلم. وأما قوله عن الأحاديث الواردة فيه: إنها ترتقي بمجموعها إلىٰ الحسن أو الصحيح؟!، فالجواب عنه: أنّ الأحاديث في فضل زيارة قبر النبي ﷺ، قد حكم عليها المحققون بأنها مكذوبة موضوعة، وليست ضعيفةً فحسبُ!، ساق منها السبكي جملةً في كتابه: «شفاء السقام في زيارة خير الأنام»، وقد فنَّد الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي (ت: ٧٤٤هـ) اعتراضاته، في كتابه: «الصارم المنكي في الردّ علىٰ السبكي»، بما لا تجده في كتابٍ غيرِهِ، وبيّن أنها: «أحاديث لا يصح شيءٌ منها البتة في زيارة قبره [ﷺ]، ولا يثبت منها خبرٌ واحد، ونحن نشهد الله أنه لم يقل شيئًا منها... وهؤلاء فرسان الحديث وأئمة النقل ومن إليهم المرجع في الصحيح والسقيم من الآثار، وقد ذكرنا فيما تقدم أنهم لم يصححوا منها خبرًا واحدًا، ولم يحتجوا منها بحديث واحد، بل ضعفوا جميع ما ورد في ذلك وطعنوا فيه وبينوا سبب ضعفه، وحكم عليه جماعة منهم بالكذب والوضع» اهـ. (ص: ٣٤٣).
وقد استقصىٰ العلّامة حماد الأنصاري - رحمه الله -: (أدلّة المجيزين لشدّ الرّحل إلىٰ القبر)، وبيّن عدم صلاحيتها للاستدلال بها، قال في رسالته النافعة: «كشف الستر عما ورد في السفر إلىٰ القبر» (ص: ٧٨): (هذه أربعة عشر حديثًا يستدل بها القائلون علىٰ جواز شدّ الرحل إلىٰ القبر، وهذا جملة ما احتج به من أجاز شدّ الرحل إلىٰ زيارة القبر الشريف بمجرده، فقد تبين لك أن جميع هذه الأخبار ليس فيها حديث صحيح ولا حسن بل كلها ضعيفة جدًّا أو موضوعة لا أصل لها، كما تقدم ذلك عن أئمة هذا الشأن مفصلًا، فلا تغتر بكثرة طرقها وتعددها، فكم من حديث =

إلحاق قبور الصالحين بقبر النبي ﷺ، كالغزالي، مع عدم التعقيب عليه أو الترجيح! - ، أشعرنا بأنه يعتذر لمن يعملُ بأقوال هؤلاء!، وكذا قَصْرُهُ معنىٰ حديث النهي عن شدّ الرحال علىٰ المساجد دون سائر البقاع؛ فلا تدخلُ في النهي! في حينِ أنه منع - قولًا واحدًا - من الزيارة لأجل طلب قضاء الحاجات من الميت ودعائه؛ وقد صرّح بقوله: «**لم يفعلها أحد من السلف ولا أباحها أحد من علماء الخلف**»![1].

في حينِ أن أمثال ابن الحاج في «المدخل» - المؤلَّف في آداب الطريق والمريد، وغير ذلك - أباح مثل هذه وما هو أفظعُ منها!، وابن الحاج عند الباحثين المشار إليهم في حملاته علىٰ الكثير من بدع عصره من دعاة السلفية!، وعند ابن باديس كذلك!؛ إذْ قال [سنة «١٩٢٤م»] عن دعوة «تطهير الدين من كل ما أحدث فيه المحدثون من البدع»، أنها هي الغاية: «التي لا زال يسعىٰ إليها الأئمة المجدّدون، والعلماء المصلحون في جميع الأزمان، فلها ألّف... وألف الشيخ ابن الحاج «المدخل»...»[2].

فيظهرُ من هذا أن ابن باديس قد يُسَهِّلُ أمرَ ما خالف فيه العلماء من المتأخرين، ولهم فيه مأخذ! ما لا يُسَهِّلُ في غيره!

=

له طرق أضعاف هذه الطرق التي سردناها عليك ومع ذلك فهو موضوع عند أهل هذا الباب؛ لأن الكثرة لا تفيد إذا كان مدارها علىٰ الكذابين أو المتهمين أو المتروكين أو المجهولين، كما سمعت في هذا الحديث، فإنها لا تخلو من كذاب أو متهم أو متروك أو مجهول لا يعرف أبدًا، ومثل هذا لا يصلح للتقوية كما هو معلوم عند أهل الفن. هذا إذا لم يكن من الصحيح ما يبطلها، فكيف وهو موجود ومعلوم في الصحيح كما تقدم من منع شد الرحل إلىٰ غير المساجد الثلاثة...) اهـ.

(١) «آثار ابن باديس» (٣/ ٢٣٤).

(٢) «آثار ابن باديس» (٥/ ٣٣).

٣- ربما كان ابن باديس يرىٰ أَنَّهُ: إن أمكنه التفاهم معهم مبدئيًّا؛ يستطيعُ في مستقبل الزمان - لو استمعوا نصحه - ، أن يصل بهم إلىٰ نتائج طيبة في الرجوع إلىٰ الهداية التامّة، أو «**إلىٰ ما كانت عليه الطرقُ في أول تأسيسها**»! - علىٰ ما سبق توضيحُهُ -.

٤- لا يمتنعُ أن يظهر ابن باديس بمظهر الرجل الزعيم؛ صاحب النظرات السياسية الموفّقة، والمصلح للأمة[1]، والعامل علىٰ نهضتها، المقاوم للاستعمار، ولما بثَّه من شرور وآفات، وفق برنامج محكم، وتخطيط بعيد، أَشْبَهَ - أوْ فَاقَ - في ذلك غيرَهُ من الزعماء كالأمير عبد القادر، مثلًا - وهو طرقي صوفي - في مقاومته لجيوش فرنسا الاستعمارية!، وهو - أي: ابنُ باديس - علىٰ طرقيّته، أو مشاركته الطرقيين!

هذا، وإننا نُقِرُّ بأن الارتباط الطرقي، سيكون دائمًا عائقًا ومانعًا من نهضة علمية وسياسية واجتماعية علىٰ أكمل ما تكون، لذلك ما لبث ابن باديس «الزعيم القائد المصلح» أن يتخلص منها كلّيًّا!، بعد زمانٍ، والله أعلم.

- **وقد حام كاتبُ مقالة: «ابن باديس والتطور العلمي لرسالته العامة»**[2] حول هذه القضية، وهو يستعرضُ أطوار ابن باديس مع هذه الطرقية، وأحمالها، التي لولا أنه أزاحها عن كاهله، لما أمكنه أن يحمل أعباء الأمة، ويخطو خطوات كبارًا في نهضتها، قال: «لا تنكر الفلسفة، ولا العلوم الاجتماعية أن للحياة العملية آثارها في تكوين الرجولة، وتفتيح الذهن، وتوسيع الأفق، وتنوير العقل، وترقية

---

(١) إذْ هو كذلك!، كان يَبُثُّ في قضايا الأمة العربية والإسلامية، وفي مسألة الخلافة بالخصوص، علىٰ صفحات جريدة «النجاح» أوائل العشرينيات! فلا غرابة إذن.

(٢) جريدة «الشعب» ، العدد (٢٢٨٠)، الخميس ١٠ صفر ١٣٩٠هـ/ ١٦ أبريل ١٩٧٠م، ص: ٧.

المدارك عامة... وإذا عدنا إلىٰ عهد ابن باديس، وطريقة الدراسة، وتقاليد الأسر - كما نعلمها - وبيئة الجزائر في ذلك التاريخ أمكننا أن نجزم بأن عوامل تفتيق الذهن، أو تفتيح الذكاء لم تكن متوفرة، بل تكاد تكون مفقودة. وعليه فنشأة ابن باديس العقلية لا شك أن تكون نشأة يغلب عليها الخمول، وتغطيها طبقة كثيفة من الحياء، وأخرىٰ من الخوف، وثالثة من أثقال التقاليد بما فيها الطاعة العمياء للأسرة... وقد لا نكون بعيدين عن الواقع إذا نحن قسمنا حياة المرحوم ابن باديس إلىٰ مراحل أربعة: تبتدئ المرحلة الأولىٰ من سنة مباشرته للعمل والتدريس سنة ١٩١٣، وتنتهي بسنة تأسيسه جريدة «المنتقد» سنة ١٩٢٥، أما المرحلة الثانية فتبتدئ من سنة ٢٥ حتىٰ سنة ٣١ سنة تأسيس جمعية العلماء ورئاسته لها.

فالمرحلة الأولىٰ: كانت مرحلة تجريبية في التدريس انكماشية في طورها الأول من حيث الصلة بالمجتمع، والانطلاق مع الحياة... ويمضي الانكماش فلا ينطلق منه عبد الحميد إلا خلال سنة ١٩٢٠، وإذا كان أسلوب الرجل صورة من نفسه، ومنطقه هو لب عقله فإنا نعود - في هذه المرحلة الأولىٰ - إلىٰ خطاب تأبيني ألقاه خلال سنة ١٣٣٧هـ إثر وفاة أحد الشخصيات العلمية البارزة من أسرة «الحسين بن القشي»[1]... حوالي سنة ١٩١٨... ويمضي علىٰ ذلك النسج من السجع والبساطة، ومن الروح التي تمثل الانعزالية والزهد أكثر مما تمثل أي شيء آخر، وحتىٰ الروح الإصلاحية المتفتحة بل المتفجرة التي عرفناها في عبد الحميد في الثلاثينيات تظهر هنا مغلقة، أو محجوبة بصوفية تقليدية ثمنتها الفقرات التي كان قال فيها: «وأنتم

---

(١) **الشيخ الحسين القشي**: دفينُ قرية سيدي خليفة، جنوب «ميلة». انظر: «رسالة الشرك ومظاهره» (ص: ٢٧٩).

معشر بني **القطب الغوث**[1] «الحسين» أعزيكم...»،... والأستاذ هنا - كما قال - في خلال بيت من المقطوعة الشعرية الأولىٰ - بعد الخطاب -:

ومعــــرب عـــما تكـــن جـــوانحي   مـــن لوعـــة الفقـــد الـــذي أشـــجاني

وأنــوب في هــذا المقــام عــن الإمــا   م شيخي القطـب[2] الرضـا حمـدان

يقوم مقام الشيخ حمدان بن الونيس أستاذه الذي كان يومئذ ما يزال مجاورًا في المدينة المنورة بالحجاز. وهنا أريد أن ألفت النظر إلىٰ أن الأستاذ المرحوم كان إذا تعرض للحركة الإصلاحية يقول: «**لولا لطف الله لكانت حياتي غير الحياة، واتجاهي غير هذا الاتجاه**»[3]، ولم أكن أفهم من عبارته تلك إلَّا أن ظروفه الأولىٰ

(١) صار ابنُ باديس بعدُ، ينكر هذه الأسماء أشدَّ الإنكار، سيَّما وأنَّ لواضعيها اعتقادات فاسدةً فيمن سموهم بها وأطلقوها عليهم، وأعظمُ ذلك: نسبة التصرف في الكون لهم!، يقول ابن باديس في «دعوة جمعية العلماء الجزائريين وأصولها» (حرَّرها سنة: ١٩٣٧م): (١٤ - اعتقاد تصرف أحد من الخلق مع الله في شيء ما شركٌ وضلال، ومنه اعتقاد الغوث والديوان). انظر: «الآثار» (٥/ ١٥٥).

(٢) انظر التعليق السابق.

(٣) هذا يؤكد لنا أن ابن باديس لم يكن في طرقيته وارتباطه بأوضاع القوم، مُمَوِّهًا أو متظاهرًا!، بل كانت تسيطر علىٰ عقله حينًا من الدهر - لاعتبارات البيئة والتلمذة علىٰ الشيوخ الطرقيين؛ الذين لم يكن ليتنكَّر لأفضالهم عليه، حتىٰ بعد أن خطا خطوات عظيمة في الدعوة الإصلاحية - ، لكن اتجاهه تَغَيَّرَ بالتدريج ومع مَرِّ الزمان، ولو لم يكن ذلك، لما كان لهذه الاعترافات - إن صحّ التعبير - أيّ معنىٰ!!. ثم بدا لي أمر آخر؛ وهو: أن ابن باديس قد يكونُ في هذه المرحلة، قد دخل في صراعٍ نفسي، ومناجاة باطنية، فهو وإن كان بظاهره مع القوم، يفعل أفعالهم ويقول أقوالهم! - بحكم العادة والاعتياد - فإنه في نفسه لم يكن مقتنعًا بها أشد الاقتناع[أو قناعته بها =

كانت لا تساعده علىٰ الثورة الإصلاحية، ولم تكن لتمهد له السبيل إلىٰ التوغل في الحركات السياسية، لكني بعد الاطلاع علىٰ هذه الخطبة أصبحت أفهم ما كان يُشير إليه بتلك العبارة. وإذا كانت أسرة «الحسين بن القشي» معروفة بماضيها في خدمة العلم، وحراسة الدين... فإن قضية التصوف أو الروح المتقشفة الزاهدة كانت روح محافظة في عبد الحميد، ولم يستطع التخلص منها إلَّا علىٰ صرخات الشعوب وهي تطال بوعود «ولسن» بعد انتصار الحلفاء، والاحتجاج من هنا وهنالك يتعالىٰ ضجيجه، ويشتد صخبه. وقد كان المسلمون قد أصيبوا بخيباتٍ مرة فإن تركيا لم تعد «تركيا» حارسة الخلافة الإسلامية، والوعود الإنكليزية الفرنسية للأقطار العربية كانت وعودًا مكذوبة، وهكذا لم يجن العرب إلا الحسرة والندم وإلا تقسيم أكثر بلادهم بين الانتداب الإنكليزي والفرنسي. فإن كانت الجزائر قد قامت عن طريق الأمير خالد وصحبه بحركة سياسية هادفة، فإن ابن باديس لا بد أن يكون قد أصبح غير ابن باديس، ولا سيما وقد صاحب ذلك عودة المرحوم البشير الإبراهيمي من الشرق(١)، ثم ظهور الحزب الدستوري في

=

مهزوزة!]، أو كان كذلك، ولكن ينازعه فيها داعٍ آخر: هو داعي العلم والتفكير، فَوَلَّدَتْ مرحلةُ التفكير العميق هذه، في باطنه تلكُمُ المواقف الإصلاحية التي كانت بعدُ، والله أعلم.

(١) يصرح الإبراهيمي بأن اجتماعاته بابن باديس في المدينة، وتعاهدهما علىٰ خدمة الوطن والنهوض به، زادت من قناعة ابن باديس بضرورة الرجوع إلىٰ الجزائر - بعد أن كان ينوي الاستقرار بالمدينة كما فعل شيخه حمدان - ؛ يقول: «ورجع الشيخ إلىٰ الجزائر من سنته تلك بعد أن أقنعته بأني لاحق به بعد أن أقنع والدي أن رجوعي إلىٰ الجزائر يترتب عليه إحياء للدين والعربية، وقمع للابتداع والضلال، وإنكاء للاستعمار الفرنسي... » اهـ.

تونس سنة ١٩٢٢. كما كانت حركات كل من مصر، وسوريا الكبرىٰ مدعاة لليقظة... والخلاصة: أن دواعي الانطلاق قد تهيأت لعبد الحميد وتمهدت له السبيل سواء عن طريق الدراسة والتدريس، وما شاع له من ذكر حسن وصيت بعيد في طول البلاد وعرضها، أو عن طريق الاتصالات بالمثقفين من أبناء الأمة والتأثير فيهم والتأثر بهم علىٰ مختلف المستويات. فإذا جاءت سنة ١٩٢٥ كانت الجهود قد توفرت، والأسباب قد تكافلت، وترافقت حتىٰ تخرج جريدة «**المنتقد**» فنحس أن الروح الثورية شرعت تعمل في أناة وتمهل، وأن عبد الحميد قد خطا خطوته الجريئة في الإقدام علىٰ خوض معارك إصلاحية اجتماعية سياسية حسب الطاقة، وأن بوق النهضة قد نفخ فيه، وأن الزحف تحرك...!» اهـ.

- وقد نقلنا هذا علىٰ طوله، حتىٰ لا نفصل بين ابن باديس المصلح الديني، وابن باديس السياسي الثائر!، ولهذه المسألة صلة وثيقةٌ بمسألتنا التي نُجِيلُ النظر فيها، وإن كانت دينية دعوية إصلاحية!، وقد ألمحنا فيما سبق وأشرنا إشارة خفيفة، أن ابن باديس كان له تطلع سياسي، ومشروع لنهضة شاملة، حتىٰ وهو مرتبط بالطرق وأهلها!! - «في أوائل العشرينيات»[1] - علىٰ ما قيل في هذه الرابطة.

نذكرُ هذا؛ لأنَّ ابن باديس في دعوته الإصلاحية، كان يراعي هذه الناحية، وهو ما ذكره بعض الباحثين - ممن واكبوا الدعوة الإصلاحية - بقوله: «**لقد كان ابن باديس كثيرًا ما يُراعي الجوانب السياسية للقضية التي يُعَالِجُهَا، فكان لا يورد**

(١) وشواهدُ ذلك جريدة «النجاح» ، وكتاباته الأولىٰ فيها في مواضيع السياسة، وبالخصوص مسألة الخلافة التي حركت النفوس والأقلام.

أو يصدر إلا عن حكمة وبحكمة» اه[١]، ووصفه أحمد توفيق المدني في أوّل لقائه به سنة «١٩٢٥م» بقوله: «دارت بيننا أحاديث مختلفة كان الرجل فيها حذرًا باقعة، يشفق علىٰ مشاريعه العظيمة أن تخفق أو تصاب بنكسة...»، وبقوله: «رجل مكتمل هادف قد أخذ يشق طريقه قدمًا نحو غاياتٍ بعيدة لم يكن يفصح عنها، إنما كانت تفصح من خلال كلماته عن نفسها» اه[٢].

وقد قدَّمنا قبلُ: في أسباب سلوك ابن باديس في الإصلاح التدريجَ والمرحلية والعمل علىٰ أطوار!: «خطورة الوضع، والخوف من بطش الطرقيين ونفوذهم **[عند العامَّة وعند الحكومة!]** إلىٰ أن يَشْتَدَّ ساعدُ الحركة الإصلاحية»، **ونزيدُ عليه: «أنه أيضًا كان لا يريدُ أن يترك فرصةً للاستعمار ليستغلَّ الخلافات بين المصلحين والطرقيين»**[٣].

وإذا فهمنا هذا نستطيع فهمَ ابن باديس في كثير من مواقفه الإصلاحية، التي قد يُحكم عليها بأنها غير موفقة، أو تنازل فيها عن شيءٍ من مبادئ إصلاحه!، **مثالُهُ:** مغاضبة ومقاطعة الشيخ العقبي[٤] لمجلة «الشهاب»، لأن صاحبها «ابن

(١) «شاعر الجزائر محمد العيد آل خليفة» للدكتور أبي القاسم سعد الله (ص: ٣٦).

(٢) «حياة كفاح» لأحمد توفيق المدني (٢/ ١١).

(٣) «الشعر الديني» لعبد الله ركيبي (ص: ٥٨٧).

(٤) من الفوارق التي تُذْكَرُ بين الشيخ العقبي والشيخ ابن باديس، وكلاهما زعيم مصلح سلفي؛ أن الاستعمار الماكر، استطاع أن يكسر (حِدَّةَ) و(صلابة) الشيخ العقبي، إلىٰ حدٍّ ما!، الشيءُ الذي لم يفعله مع ابن باديس!، يقول محمد علي دبوز في «نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة» (٢/ ١٢١) عن الشيخ العقبي، أنه: (لم يسلك طريق المرانة والسياسة البارعة التي كان عليها الشيخ ابن باديس مع الاستعمار وأذنابه فجنبته كثيرًا من الأخطار التي حاقت بالشيخ العقبي) اه.

باديس» دعا إلىٰ وَقْفِ الكتابة الهجومية علىٰ الطرق، والتوجه إلىٰ ميادين إصلاحية أخرىٰ في الفكر والسياسة والأدب!...

٥- **لم يظهر صريحًا في كلامِ الإبراهيمي**: أنَّ ابن باديس لم تكن له أية رابطة بالطريقة وأهلها - أعني الرابطة الحقيقية وليست التمويهيَّة -. والإنكارُ علىٰ البدع والمحدثات والدجل في الجملة، وُجِدَ من الطرقيين من يتبنَّاه[1]، بل من شهر فيه!

غرضُ ابن باديس من مصاحبة الطرقيين، أو سِرُّ صِلَتِهِ بهم:

إنَّ مصاحبة ابن باديس للطرقيين ومشاركته لهم في رحلة الزيارة! كانت - فيما يبدو - مع مباينته لهم في الفكر، وفي القصد والنيَّة، مع أنَّها لم تدم طويلًا، فقد حمله **استقلالُهُ** في التفكير علىٰ التخلص نهائيًّا من تلكم الروابط التي كانت تربطه بهم، ثم مثلُ هذا الموقف من ابن باديس هو الذي قد نستطيعُ أن نحمله علىٰ التقية والمسايرة في الظاهر دون الباطن!

(١) **ومن هؤلاء**: الشيخ السعيد البهلولي الورثلاني (رحمه الله تعالى)، مؤلّف كتاب: (هذه رسالة في الرد علىٰ العوام القائلين: بوجوب تلقين الأوراد علىٰ الكافة، وبإثم ذاكر ليس له ملقن...)، وقد قرَّظه الشيخ الإبراهيميّ، ونوّهَ بأفكارِ الشيخ السّعيد، وانظر إلىٰ قوله: (المسألة التي كتبتم فيها هي المسألة الشاغلة لأفكار دعاة الإصلاح الديني... لذلك تضاعف فرحي وابتهاجي حين اطلعت علىٰ فكركم في هذه المسألة، وأنا أعدّكم من أنصار هذه الحركة المباركة - حركة الإصلاح الديني - وأقوىٰ ظهرانيها في هذه البلاد المنكوبة التي ابتليت بجدب العقول وقحط الرجال المصلحين) اه. هذا وإنَّ الشيخ السعيد، لمْ يُنكِرِ الطريقة والانتساب إليها أو إلىٰ أحدٍ من شيوخها، وإنما هو من الفقهاء المتصوّفة الذين أنكروا أعمال مدّعي العلم والولاية - وهو متأثّرٌ في ذلك بالشيخ زروّق، ومن سلك طريقتهُ - !!/ انظر: «الشيخ السعيد أبهلول الورثلاني في مجموعة من رسائله ومجالسه وفتاويه»، جمع وتصحيح وتعليق: ولده: أ. محمد الطاهر فضلاء (ص: ٨٧ - ١٦٩).

وبسبب هذا الارتباط بشيوخ الطرق والمقدَّمين فيها، تجاوب معه بعضهم، وكانوا أعوانًا له علىٰ الإصلاح، وإن لم تتم لهم الهداية كاملةً في التخلص من الانتساب الطرقي!، فهؤلاء الذين كان يُثني عليهم، ويرجو لغيرهم أن يكونوا مثلهم، ويأملُ لجميعهم أن تتم هدايتهم، وكانوا هم في المقابل: يُثنون عليه ويمدحون دعوته وإصلاحه!

- **ومنهم: الشيخ محمد علي آل خليفة** «ت: ١٩٢٧م» [والد محمد العيد آل خليفة؛ الشاعر]، وهو شيخٌ ومقدمٌ في الطريقة التجانية، وهو الذي شجع ولده ليتصل بالمصلحين ويكون واحدًا منهم[١]، ويذكر الولد عن والده، بأنه كان: **«مصلحًا يحب العلم والإصلاح ويجلّ العلماء والمصلحين وينظر إليهم نظرته إلىٰ مشايخه»**[٢]، وكان ابن باديس ينزل «ضيفًا مكرمًا علىٰ شرف والد الشاعر، فأقره علىٰ صوفيته بالصورة التي رآه عليها[٣]، وعلَّق علىٰ ذلك وهو يخاطب الشاعر بما في هذا المعنىٰ: **«لو كان كل المتصوفة في البلاد كوالدك، ورعًا وتقوىٰ وتمسكًا سليمًا بأصول الدين، ومفهومه الصحيح، وإخلاصًا للإصلاح لما كان ما كان بين رجال الإصلاح وبين أتباع الطرق المزيّفة، ولكانت الجهود واحدة»**.

ومما يدعم هذه الشهادة، ويؤكد في الوقت ذاته، قرب والد الشاعر من الفكر الإصلاحي، ما جاء في قول الشيخ الطيب العقبي وهو يخاطب الشاعر مشيرًا إلىٰ أثر تربية والده عليه، يقول العقبي:

---

(١) «**محمد العيد آل خليفة**: دراسة تحليلية لحياته» للدكتور محمد بن سمينة (ص: ١٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) **أقول**: ولا شك أنها صوفية بالمعنىٰ الإسلامي، الذي تقدم عن ابن باديس تحديدُ مفهومه.

رحـــم الإلـــه أبـــاك إذ ربـــاك بالـــ ـــعلم الـصحيح ومحكـم القـرآن[١]

- ومنهم: «**الشيخ محمد العيد بن البشير المتوفىٰ سنة ١٩٢٧م**»[٢]، شيخ الزاوية التجانية في «تماسين» [قرب «تقرت»]، يقول «محمد علي دبوز» عن هذا الشيخ إنه: «كان ذكيًّا أديبًا، مثقفًا، غيورًا كل الغيرة علىٰ الإسلام والمسلمين، **يكره البدع وينشر الإصلاح، وينفخ في أتباعه روح الدين الصحيح، وكان يكره أن يقبّل أحدٌ يده، وكان يدعو إلىٰ العمل والنهوض والتقدم**»[٣].

- ويقول الشيخ محمد السعيد الزاهري «١٨٩٩م - ١٩٥٦م»[٤] في مقالته: «**المرحوم الشيخ العيد**»: «.. الشيخ العيد، رئيس زاوية «تماسين»... علىٰ أن المرحوم نال رضىٰ التجانيين وسائر أهل الطرق، وهذا لا يكون عندك فيه شك، ونال أيضًا فوق ذلك رضا سائر المصلحين من شيوخ وكهول وشباب... وفي الحق أن المرحوم كان عمدة من عمد حزب الإصلاح، وشابًّا من جماعة الشباب الناهض، **ورغمًا عن كونه شيخ طريقة منتشرة كثيرًا، وكثيرة الأتباع، فإنه كان يؤمن بالله وحده لا يشرك به شيئًا، ولا يؤمن بعد الله وآياته بخرافة ولا «طريقة» يهزأ ويسخر من هؤلاء الأغمار الذين جاءوا بزعمهم يدافعون عن البدع والضلالات، ويصدون الناس عن آيات**

---

(١) «**محمد العيد آل خليفة**: دراسة تحليلية لحياته» للدكتور محمد بن سمينة (ص: ١٨)، و«ديوان محمد العيد محمد علي خليفة» (ص: ٥٤٧).

(٢) «**محمد العيد آل خليفة**: دراسة تحليلية لحياته» للدكتور محمد بن سمينة (ص: ١٦). ورد عنده سنة الوفاة: (١٩٢٠م)!، ولعله خطأ طباعيٌّ.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) **انظر**: ترجمته في «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (١/ ١١٥ - ١١٩) للحسن فضلاء.

الله... بدأ المرحوم بأبناء زاويته فنهاهم عن الطواف علىٰ الناس لجمع الزيارات، ومنعهم من الدوران والتكفف، فانتهوا وعادوا لا يخرجون لقبض الزكوات والنذور. وبدأ بهم وبحاشيته الخاصة ينصحهم ويقول لهم: «اتقوا الله في حزب الشباب وجماعة المصلحين، فإنهم مخلصون في دعوتهم، ومحقون فيما يقولون وهل يدعون الناس إلا إلىٰ القرآن وسنة رسول الله ﷺ؟ ومن يرغب عن الكتاب والسنة إلا من سفه نفسه، وطمس الله علىٰ بصره، وختم علىٰ قلبه؟... وإني أرىٰ في الشبان خصلتين حميدتين سينالون بهما الغلبة والنصر، وسيتمكنون بهما من تحطيم الخرافات والأوهام، وما من ذلك بدّ. وهما: ترك ما في أيدي الناس، وبهذه سيحبهم الناس، والأخرىٰ قوة حجتهم وبساطة دعوتهم فإنهم يحتجون بالقرآن، ويدعون إلىٰ الحي الذي لا يموت، وأي مؤمن لا يجيب داعي الله؟ وأي مؤمن يجادل في آيات الله ولا يذعن لله ولا لرسوله ﷺ؟ فعندي أن أكثر المعارضين قوم لا يفقهون، ولقد سمعت صياح هؤلاء وغوغاءَهم فإذا هم لا يزيدون عن كلمة واحدة فارغة يرددونها ويتناقلونها، وهي: إن هؤلاء الشبان قوم ملحدون ينكرون الولاية والكرامة، فهم أعداء الله وأعداء أوليائه الصالحين الأولين. ثم تعوزهم الحجة فيسرعون إلىٰ الوقيعة في أعراض المصلحين المؤمنين لتنفر العامة منهم، وكلمتهم هذه داحضة باطلة، وليست إلا مغالطة وسفسطة؛ لأن المصلحين إنما ينكرون الولاية بمعنىٰ الألوهية من «سلطة غيبية» واطلاع علىٰ الغيب وتصريف في ملكوت السموات والأرض وما بينهما وما أشبه ذلك: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]. وأما الولاية بمعنىٰ الإيمان والتقوىٰ فذلك ما يدعو المصلحون إليه جميع الناس، ويحثون المسلمين أجمعين علىٰ أن يكونوا كلهم أولياء الله، وأنصارًا إليه، يؤمنون بالله، لا

يلبسون إيمانهم بظلم، ولا يعتدون حدود الله ولا يعشون عما أنزل الله علىٰ رسوله من البينات والهدىٰ. ولئن كان الشبان اليوم في ضيق من الخصومة والجدال، فغدًا هم الأعلون، وحزب الله هم الغالبون... «وهذا كلام سمعت المرحوم يقوله لخاصته وأفراد أسرته حينما زرته في محله ببسكرة في ماي الماضي... وكان «البرق» في عدده السابع أعلن بمثل هذا الكلام علىٰ المرحوم وعن قريبه الشيخ السيد محمد الكبير، وهو يبشر بهما جماعة المصلحين... **والمرحوم هو الذي أضفىٰ علىٰ المصلحين شيئًا كثيرًا من سَوْرَةِ التجانية فسهلوا وأصلحوا بعدما كانوا أشداء متعصبين**... وكثيرًا ما كان المرحوم يهم بالتنازل عن رئاسة الزاوية ولكنه يرىٰ أن بقاءه بمنصبه أشد تأثيرًا علىٰ أتباعه وأدعىٰ لقبول نصائحه، وإرشاداته، فيستقر بمنصبه لهذا السبب لا غير... وأكبر ما أتمنىٰ لأشياخ الطرق ولسائر المسلمين أن يكونوا كالفقيد في النزاهة والعفاف... ولم يكن فقيدنا المغفور له يقبل من الناس «نذرًا» ولا «زيارة» ولا «صدقة»، فإن التجانيين ببسكرة كانوا قد اكتتبوا له وهو لا يعلم بألف ومائتي فرنك «فيما أظن» زاروه بها فأبىٰ أن يقبلها منهم، وأمرهم أن ينفقوها في سبيل الله علىٰ الفقراء والمساكين أو يعينوا بها مشروعًا عامًّا من مشاريع المسلمين... **ولولا المرضُ الذي طال به كان يشغله بنفسه إذن لتقدم بحركة الإصلاح تقدمًا سريعًا ولاستحالت الطريقة التجانية علىٰ يده طريقة «إصلاح» وطريقة رجوع إلىٰ الكتاب والسنة** رحمه الله رحمة واسعة وكافأه بنعيم دائم. ولقد كان هذا الرزء الأليم شديدًا علىٰ المصلحين وجماعة الشباب الناهض... **تلمسان ١٥ نفامبر ١٩٢٧م محمد السعيد الزاهري**»[(١)].

(١) «الشهاب»، العدد (١٢٤)، ٦ جمادىٰ الثانية ١٣٤٦هـ/ ١ دسامبر ١٩٢٧م/ (ص: ٦ - ١٠).

- ومنهم: **الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي**[(١)] - وقد ترك الطريقة ونبذها كما سيأتي - ، يقول ابن باديس في مقالته: «**الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح**»: «كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة القادرية رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا قويًّا ذكيًّا واسع الحيلة بعيد النظر، فأدرك بثاقب رأيه أن ما عليه الطرقية من الجهل والجمود لا يمكن أن يستمر طويلًا في عصر العلم والنهوض، وأن المستقبل للعلم لا محالة، فولَّىٰ وجهه شطر العلم، وقدم أبناءه لجامع الزيتون المعمور، وحبس أملاكه كلها علىٰ العلم... واشترط في أبنائه أن لا حظ لأحدهم في الحبس إلا إذا حصل علىٰ شهادة العالمية «التطويع» من جامع الزيتونة... انتهىٰ أمر الحبس إلىٰ الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي... وتولىٰ مشيخة الطريقة القادرية، ودخل معه في الحبس أخوه الشيخ محمد الصالح لتحصيله علىٰ شهادة العالمية، فكان الرجلان بما لهما من العالمية بعيدين عن كل تلك المواقف العدائية التي وقفها شيوخ الطرق الأخرىٰ، أو أوقفوا فيها ضد جمعية العلماء... [ثم ذكر انخراط الشيخ عبد العزيز في الجمعية، وقيامه بنشر العلم وإِعْمَارِ زواياه بالعلماء]، أخذ

---

(١) عبد العزيز بن الهاشمي، ولد في «البياضة»، بلدية وادي سوف، سنة (١٨٩٨م) أو: (١٨٩٩م)، أبوه الشيخ الهاشمي (ت: ١٩٢٣م) رئيس الطريقة القادرية المشهورة بالوادي، نشأ طرقيًّا، وسافر إلىٰ تونس للدراسة في جامع الزيتونة، إلىٰ أن حصل علىٰ شهادة «التطويع» في شهر يونيو سنة ١٩٢٣م، سُجن في أحداث سوف سنة (١٩٣٨م) في جماعة من العلماء بتهمة الإعداد والدعوة للثورة علىٰ فرنسا، نُفي إلىٰ تونس، وتوفي بها بعد أن طال به المرض في أول يونيو سنة ١٩٦٥م. انظر: «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (٣/ ١٣٩ - ١٤٣) للحسن فضلاء، و«شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر» (عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح) (ص: ٤٥ - ٦٠) للدكتور أحمد صاري.

يكرر الاجتماعات في نواحي سوف بأتباع زواياه يحثهم علىٰ العلم ويرغبهم في التعلم، ويبين لهم أن الانتساب إلىٰ الشيخ عبد القادر الجيلاني - وهو من أئمة العلم في مذهب أحمد بن حنبل - لا يمنع من العلم والأخذ بأسباب العلم...»(١)، ثم هداه العلم إلىٰ أنه: «**لا طرقية في الإسلام**» - وسيأتي تبيانه -.

- فهؤلاء سما بهم العلم والتفكير الصحيح، فنبذوا كثيرًا من البدع والانحرافات(٢)، وآل الأمر - أخيرًا - ببعضهم إلىٰ عدم إقرار الطرق من أصلها.

- ومنهم من لم يثبت علىٰ الحق الذي لاح له، ولم يثبت أمام تأثير أوهام الطريقة علىٰ عقله، ولم يمض في طريق التفكير وتحكيم الكتاب والسنة، فعاد إلىٰ التسليم لأحوال الشيوخ! ونصرةِ وتأييدِ الطرق، مع تحفُّظٍ من فاضحِ أعمال أهلها!، ومن هؤلاء: **الشيخ بوعبد الله البوعبدلّي الرّزيوي** «١٨٦٨م - ١٩٥٢م»، **والشيخ الطيب المهاجي** «١٨٨٢م - ١٩٦٩م».

- فابن باديس في كل هذه المحاولات، ربما كان يَقْنَعُ من هؤلاء الشيوخ بالخطوة والخطوتين في طريق الإصلاح، فهي - عنده - مكسبٌ كبير، وكان يرجو أن يطول الزمان بهؤلاء فيهتدوا إلىٰ الحقيقة كاملةً، وإنْ بالتدريج، لذاك سعىٰ إلىٰ الوفاق والتفاهم، ودعا إلىٰ تأسيس جمعية؛ تَسَعُ الجميع! - لكن ضمن المخطط

---

(١) «آثار ابن باديس» (٥/ ٣٩٧ - ٣٩٨).

(٢) **يقول ابن باديس [سنة ١٩٣٩م]**: (ولا يخفىٰ أن الأستاذ[الخضر بن الحسين الطولقي الجزائري - الأصل - التونسي - النشأة -] أبقاه الله ابن أخت العلامة الجليل الشيخ المكي بن عزوز رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وكلاهما من أبناء الطرقية، ولكن العلم سما بهما إلىٰ بقاع التفكير والهداية والإصلاح، ولكليهما - أحسن الله جزاءهما - كتابات في التحذير مما عليه الطرقية اليوم تارة بالتصريح وتارة بالتلميح...) اهـ. انظر: «آثار ابن باديس» (٥/ ٤٢٣).

الذي وَضَعَهُ -، فهو يضع يده في أيدي هؤلاء الطرقيين: «الذين قبلوا بالإصلاح في الجملة!» ويتعاونُ معهم، وهو علىٰ يقين، أن العلم والتوغل في الإصلاح، سيؤديان بهم إلىٰ إبصار الحقيقة بأكملها. أما الذين تنكروا للإصلاح، وارتموا في أحضان الحكومة الاستعمارية، فيقول ابن باديس عنهم: «**عرفت شيوخ الطرق أوقاتًا، ثم فارقتهم بَتَاتًا، وما عرفتهم - علم الله - إلا لأخدم معهم الجزائر بالإسلام والعربية، أو أعمل معهم في سبيل الإسلام والعربية في الجزائر، وما فارقتهم حتىٰ عرفتُ منهم أنهم مذهوبٌ بهم في غير هذه السبيل...**»(١).

في سبيل التفاهم!:

بعد تلكم الزوبعة والاصطدام الشديد في أواخر العشرينيات، عَمَدَ «ابن باديس» إلىٰ تهدئة الوضع، وأَمَرَ بالكفِّ عن الكتابات الهجومية، بعد أن رأىٰ أن المرحلة أو الخطة الأولىٰ، قد آتت الثمرة المرجوة منها.

ثم دُعِيَ جميع من ينسب إلىٰ العلم إلىٰ جمعيةٍ تجمع وتوحِّدُ الجهود، وقد كانت في أول أمرها خليطًا من المصلحين والطرقيين، وكلُّ ذلك كان عن تدبير وتخطيطٍ!!، وفي هذه المرحلة قام ابن باديس رئيس هذه الجمعية برحلات في أنحاء الوطن الجزائري، ومن ذلك رحلته إلىٰ القطاع الوهراني «الجهة الغربية للوطن».

اجتمع ابن باديس مع الكثير من شيوخ الطرقية ورؤساء الزوايا، بعد ذلكم الاصطدام المعروف، ومنهم «ابن عليوة المستغانمي» شيخ الحلول.

عرف ابن باديس أن القوم مضىٰ عليهم دهرٌ في هذه الطرقية، وكان من الصعوبة بمكان نقلهم عنها دفعة واحدة، فلا أقلَّ من إزاحةِ كبرىٰ العقبات التي

---

(١) «آثار ابن باديس» (٦/ ٣٠٤).

تعترض ذلك؛ **والرجوعِ بهم إلىٰ أصل الإصلاح**، وهو وزن الأقوال والأعمال والأحوال بميزان الكتاب والسنة، الذي يُدَنْدِنُ به كثيرٌ منهم ولا يطبقونه، **فأراد أن يُلزمهم الحُجَّة، بإقرارهم بهذا الأصل الذي انتزعهُ منهم.**

كما أَنَّهُ رأىٰ أن يُخفِّفَ الوَطْأَةَ علىٰ الشيوخ والرؤساء، حتَّىٰ **يُخَلُّوا بينه وبين الأتباع والعامة** المنتمين لهذه الطرق، ليتمكَّن من دعوتهم وإيصال العلم لهم «وقد أشرنا إلىٰ هذا في ذكر أسباب الأخذ بالتدرُّج وسلوك المرحلية».

وبرز ذلك في مواقف للإمام ابن باديس، منها:

- **يقول ابن باديس تحت عنوان «للتعارف والتذكير»**(١): «عرفتني تنقلاتي في بضع قرىٰ ما في قلوب عامة المسلمين الجزائريين من تعظيم للعلم وانقياد لأهله إذا ذكروهم بحكمة وإخلاص(٢)، ما حللت بقعة إلا التفَّ أهلها حولي يسألون ويستمعون في هدوء وسكون، **وكلُّهم أو جلُّهم منتمون للطرق من مقدّم وشاوش وخوني**»(٣)، ثم قال: «**وما كنتُ أدعوهم في مجالسي إلَّا لتوحيد الله،**

(١) «الآثار» (٤/ ٢٢٥).

(٢) وهذا الذي كان يسير عليه ابن باديس في تلك التنقلات.

(٣) **وهذا يجعلني أقولُ**: إنَّ ابن باديس أدرك أنه يستطيع الوصول إلىٰ قلوب عامة الناس الذين يسيطر عليهم شيوخ الطرق ، إذا ذكَّرَهُمْ بحكمة وإخلاص، وأن لديهم الاستعداد والقابلية للخضوع للعلم والحق والانقياد لأهل العلم إذا سلك أهل العلم الحكمة في تذكيرهم. وهذا ما لمسه هو بنفسه في تنقلاته، ولهذا كما ذكر (حماني): كان ابن باديس يجْنَحُ - نوعًا ما - إلىٰ الأخذ بالرفق واللين والدعوة بالتي هي أحسن. ولعلَّ أكبر مثال علىٰ ذلك مقالته «في سبيل الوفاق والتفاهم» ، ورأىٰ أنَّ تلك الحملة التي شنت من طرف المصلحين في نقد أعمال الطرقيين قد بلغت منتهاها، خصوصًا بعد ما أدت إليه من مشادَّات عنيفة بين كتَّاب الطرفَيْن، وعندها رأىٰ =

والتفقه في الدين، والرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله[١]، ورفع الأمية والجد في أسباب الحياة من فلاحة وتجارة وصناعة، وإلىٰ اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب وطريقة وجنس وبلد[٢]، **كنت أُذَكِّرُهُمْ بهذا كلِّهِ، وأقرأ علىٰ وجوههم سمات القَبول والإذعان، وأنا علىٰ يقين من بقاء أثرٍ نافعٍ لذلك بصدق وعد قوله تعالىٰ:** ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]»[٣].

- **ويقول ابن باديس:** «كنت أجيب عندما أسأل عن المُقَدَّمِين بأن الذي

=

ابن باديس إيقاف ذلك التيار القوي من الكتابة الإصلاحية، ودعا إلىٰ الوفاق والتفاهم وإلىٰ صفاء الصدور. ولم يقصد إقرارَ ما عليه الطرقيون من ضلال، ولم يُرِد السكوت علىٰ المنكرات في العقائد والعبادات، وإنما أراد تغيير الأسلوب ليسَ إلَّا، كما وضَّحه هو بنفسه لمن لم يفهموا مراده.

قال في تعليقةٍ لهُ: (ش: ليس معنىٰ الدعوة إلىٰ الحسنىٰ هو السكوت علىٰ الحق وإلقاء الحبل علىٰ الغارب، كما فهمها حضرة هذا الأخ، وإنما معناها اقتصار الكُتَّاب علىٰ البحث والمناظرة بدون فحش... ندعو الكُتَّاب إلىٰ أن يكونوا في مناظراتهم كإخوة مشفقين لا كأعداء متفرقين...) اهـ.

[«الشهاب» ، العدد (١١٣)، (ص: ٧)، ١١ ربيع الأول ١٣٤٦هـ/ ٨ سبتمبر ١٩٢٧م.]

(١) يُلاحظُ أن ابن باديس لم يترك الدعوة إلىٰ التوحيد وإلىٰ تحكيم الكتاب والسنة، بل كانت دعوته كلها تصُبُّ في هذا المبدإ.

(٢) من آثار الطرقية السيئة التفريق بين الأمة وتشتيتها وإيقاد العداوة والبغضاء بين أتباع الطرق، لذا كان ابنُ باديس يدعو إلىٰ أُخُوَّة الإسلام والالتقاء علىٰ توحيد الله، والرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله.

فكما كان يقول عن نفسه؛ إنه «داعية توحيد واتحاد».

(٣) هكذا اقتنع ابن باديس بما صدَّر به كلامه أولا؛ أن في قلوب عامة المسلمين الجزائريين تعظيما للعلم وانقيادًا لأهله إذا ذكَّرُوهم بحكمة وإخلاص.

يستحق التقديم هو من يكون عارفًا مُعرِّفًا[١]، داعيًا إلىٰ التوحيد[٢] والاتحاد[٣]، متمسِّكًا بالسنة[٤]، وأشرح لهم ذلك، ولقد لقيت من المُقَدَّمِين من هو موصوفٌ بهذه الصفات أو عاملٌ علىٰ أن يتصف بها»[٥]. وهكذا كان ابن باديس يُعَلِّمُ، ويُذَكِّرُ، ويُصلح، ويُحْدِثُ في النفوس تغييرًا باللين والرفق والحكمة، فكان لدعوته الأثر الطيب والقبول الحسن لدىٰ الناس.

لَيْسَ لَنَا فِي الإِسْلامِ شيخٌ يُسَلَّمُ لَهُ حالُهُ؛ أوْ: الكتابُ والسُّنَّة حُجَّةٌ على كلِّ أَحَدٍ:

- وموقفٌ آخر للإمام في مجلس ابن عليوة «شيخ الطريقة العليوية» - في زمان الهدنة والمسالمة - أراد أن ينتزع - علىٰ الأقل - من هؤلاء الإقرار والتسليم بأن الشيوخ لا يُسَلَّمُ لَهُمْ حَالُهُمْ، وأنهم يُنْتَقدون إذا أخطئوا، ويُقَوَّمُون إذا انحرفُوا! يقول:

«إنما المهم هو أن جميع علماء الإسلام من المفسرين والمحدثين، والفقهاء والمتكلمين وشيوخ الزهد المتقدمين - تتسع صدورهم لأن يؤخذَ من كلامهم ويرد إلا العامة المنتمين إلىٰ التصوف ، فإنهم يأبون كل الإباء أن يسمعوا كلمة نقد أو رد في أحد من الشيوخ، مع أن غير المعصوم معرض للخطإ دائمًا في أقواله

---

(١) أي عالمًا معلمًا.

(٢) أي: توحيد الله تعالىٰ في عبادته، وترك الشرك.

(٣) أي: أخوة الإسلام؛ لا يدعو إلىٰ حزب أو طريقة أو مذهب، وإنما هو الرجوع إلىٰ كتاب الله وسنة رسوله والتحاكم إليهما عند النزاع.

(٤) وكذلك طارحًا للبدعة مبتعدًا عنها.

(٥) «الآثار» (٤/ ٢٢٦).

وأفعاله، فكأنهم بهذا يعتقدون فيهم العصمة. وقد سئل إمام الطائفة الجُنَيْد: أو يزني الولي؟ فأطرق، ثم قال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨]. فهذا يدلنا علىٰ ما كان عليه شيوخ الزهد من تعليم الناس بأنهم غير معصومين؛ دفعًا لغلوِّ الغالين. وعلىٰ أن فكرة العصمة أو ما يقرب منها موجودة في الأذهان، وهي مثار مثل هذا السؤال، فلو أن إخواننا المنتمين للتصوف قبلوا أن يوزن كلام الشيوخ بميزان الكتاب والسنة **مثل غيرهم من علماء الإسلام**، ورضوا بالرجوع الحقيقي لقوله تعالىٰ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] - لبطل الخلاف أو قل -...»[١].

فهذه عقبة كئود، لو يتمكن المصلحون من اجتثاثها!، كما أراد ابن باديس أن ينتزع منهم وجوب معاملة شيوخ الطرق مثل معاملة العلماء الآخرين[٢]، ووجوب قبول الرجوع إلىٰ الكتاب والسنة، وعرض كلام الشيوخ علىٰ هذا الميزان لا غير؛ «الكتاب والسنة»، ومعلوم أن أهل الطرق المنتسبين للتصوف، يستدلون

(١) «الشهاب»، رجب ١٣٥٠هـ، نوفمبر ١٩٣١م/ «الآثار» (٤/ ٢٤٨).

(٢) يقول الإمام الإبراهيمي، وهو يتحدّثُ عن حالة الوطن الجزائري، وتغلغل الاستعمار الروحي الداخلي في هذه الأمة - يعني: سلطان الطرقية - ممّا تصعبُ معه مهمّةُ المصلحين: (ونحن نعلم قوّته والتفاف ٧٠ بالمائة من الأمة علىٰ الأقل حوله، ومعه الحول والطول. فالأموال وفيرة، والجاه عريض، والحكومة تقارضه تأييدًا بتأييد، وذلك العدد العديد من الأمة يسبّح بحمده، ويعتقد أن تلك الطرق كلها طريق إلىٰ الجنّة، وأن تلك البدع والضلالات هي الدين، بل هي صميم الدين، وأن كلمة نقدٍ في أولئك المشايخ ولو عصوا الله، وفعلوا المنكرات قد تؤدي بصاحبها إلىٰ الكفر، والخسار الدنيوي والأخروي وحلول النقم السماوية...) إلخ. انظر: «آثار الإمام الإبراهيمي» (٥/ ١٤٣).

علىٰ أقوالهم وأعمالهم وأحوالهم الباطلة بالكشف وادعاء خرق الحجب، والاطلاع علىٰ ما وراء الحس، وبالمنام والذوق والوجد إلخ؛ فلذلك إذا اعترض عليهم معترضٌ من مريديهم حكموا عليه بالشقاء والخسران والهلاك!، ومن عباراتهم: «من اعترض انطرد»، ومن خزعبلات أرباب الطرق؛ أنك ربما حكمت بالشرع أو العقل «وهو العلم الظاهر» علىٰ شيءٍ ما بأنه باطل، وهو في ذوق شيخك، أو منامه «العلم الباطن» حقٌّ، فتعرض نفسك للطرد من حظيرته!!، فإن أَقَرُّوا أنْ لا ميزان ولا حكم إلا «الكتاب والسنة»، لم يكن لهم سبيلٌ للاستدلال بغيرهما.

وقد ناقش الإمام ابن باديس مفتريات الطريقة التجانية «سنة ١٩٣٨م»، فممَّا قاله:

«قد بعث النبي ﷺ معلما كما صحَّ عنه، وعاش معلما إلىٰ آخر لحظة من حياته، فتوفاه الله تعالىٰ نبيًّا ورسولًا، ونقله للرفيق الأعلىٰ، وقد أدىٰ الرسالة، وبلغ الأمانة، وانقطع الوحي، وانتهىٰ التبليغ والتعليم. وترك فينا ما إن تمسكنا به لن نضل أبدًا وهو كتاب الله وسنته، كما صحَّ عنه، هذا كله مجمعٌ عليه عند المسلمين، وقطعيٌّ في الدين، فمن زعم أن محمدًا مات وقد بقي شيء لم يعلمه للناس في حياته فقد أعظم علىٰ الله الفرية، وقدح في تبليغ الرسالة وذلك كفر... **فإن زعم أنه عَلَّمَهُ إِيَّاهَا في المنام فالإجماع علىٰ أنه لا يؤخذ شيءٌ من الدين في المنام مع ما فيه من الكتم وعدم التبليغ المتقدم**» اهـ[1].

كمالُ الإسلام بدون هذه الطرق:

- ثم موقفٌ آخرُ من الإمام، في سفرته إلىٰ «البليدة» [سنة ١٩٣٢م]، جمعه مجلسٌ ببعض خصوم الإصلاح من الطرقيين من أهل فاس، نال من أعراض المصلحين

(١) «الآثار» (٣/ ٣١٦).

ووصفهم بالمفسدين، فما كان من ابن باديس إلا أن ردّ عليه، وتكلم طويلًا في إفحامه، بما يفهم منه أن الإسلام طريقة واحدةٌ، وأنه لا يعرف هذه الأوضاع المحدثة، فقال: «... ولقينا في «البليدة» الشيخ محمد الحبيب الفيلالي ثم الفاسي في قشابية خضراء وعمامة خضراء، **هيئة لا نعرفها إلا فيمن يريدون التأثير علىٰ أنظار العوام، ينتحل الشيخ العلم وينشر الطريق ويرقص في الحضرة ويقصد قصائد الطريق**، ولقد كنا في ضيافة بعض الأفاضل في مجلس حافل فأخذ الشيخ يتحدث عن الإصلاحيين بالمغرب الأقصىٰ وأخذ ينتقصهم في أشخاصهم... وأطال لسانه في الإمام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، فتركناه حتىٰ فرغ ثم افتتحنا الكلام وقلنا للناس: إننا جئنا لندعو إلىٰ الله وإلىٰ الأخوة الإسلامية العامة، ولا نحب أن نعيد ذكر طرقيين وإصلاحيين، ولكن الشيخ قد اضطرنا بكلامه هذا إلىٰ بيان الحق والدفاع عن هؤلاء الغائبين الذين تعرض لهم، وأسهبنا في ذلك بما نقض قوله، وبين حقيقة الإصلاح المنشود، ولما فرغنا انتظرنا أن يكون منه جواب أو معارضة فيما قلنا، فلا والله ما كان منه شيءٌ، وقال لي فضيلة الشيخ المفتي في ذلك المحفل ما معناه: «**إننا لننتسب للطريق لقصد الذكر وتهذيب النفس ونبرأ من كلِّ المفاسد التي يرتكبها من يرتكبها من الطرقيين**»، **وقد كان يمكنني أن أقول لفضيلته: إنَّ الذكر وتهذيب النفس قد كان قبل هذه الطرق**، ولكن رأيت الأنسب والأَفْيَد هو الاكتفاء بما تقدم في ذلك المقام»[1].

- **هذا هو الموقفُ «العلميُّ»** الذي يعلم من كتابات الإمام ابن باديس وتقريراته، ونداءاته بالرجوع إلىٰ الكتاب والسنة وعمل السلف الأولين، والتي من رجع إليها

(١) «الشهاب»: ربيع الثاني ١٣٥١هـ، أوت ١٩٣٢م/ «الآثار» (٤ / ٢٥٤).

وحكَّمها أدركَ أنْ «**لا طرقية في الإسلام**»، **وإنَّ قصد الذكر وتهذيب النفس كان موجودًا عند السلف الأولين علىٰ أتمه وأكمله، فلا حاجة لنا إلىٰ هذه الطرق، ولا يجوز إحداثها**، «**فكلُّ محدثة بدعة وكلُّ بدعة ضلالة**». وأما غير هذا مما يوهم خلافه، فيُفهم المراد منه من خلال الوقوف علىٰ زمان وملابسات وقوعه!

- وقد صرّح الإمام ابن باديس برأيه في «**الأوضاع الطرقية**» [سنة ١٩٣٤م]؛ قال تحت عنوان «**بدع الذكر**»: «**تقوم هذه الطرائق المنتسبة للتصوف علىٰ أوضاع مخترعة تمتاز كل طريقة بصنف منها، ومن تلك الأوضاع أوضاع ابتدعوها في الذكر وأذكار انصرفوا وصرفوا بها عن الأذكار النبوية المأثورة**، وانتهىٰ بهم الابتداع إلىٰ قبائح وفضائح ينكرها العقل والشرع، ويخجل الكاتب من أن يجري بها البنان، وقد طال إنكار العلماء عليهم قديمًا وحديثًا، ولكن رؤساء تلك الطرائق والمتعيشين منها كانوا أعظم الصادين عن الانتفاع بإنكار أولئك العلماء الناصحين، وكثيرًا ما كان علماء السوء الجبناء أو الطماعون سببًا بسكوتهم أو تحسينهم لتمادي الضالين علىٰ الضلال...»[(١)]، ليقول سنة [١٩٣٧م]: «البدعة كل ما أحدث علىٰ أنه عبادة وقربة، ولم يثبت عن النبي ﷺ فعله، وكل بدعة ضلالة... - الأوضاعُ الطرقية بدعةٌ لم يعرفها السلف»[(٢)] اهـ.

- وهنا أذكر **موقفًا «تعليميًّا»** للإمام، فقد حفظ لنا أحد تلاميذه «الشيخ أحمد حماني» مثالًا عن طريقة تدريس الإمام لتلاميذه و«التربية السَّلَفِيَّة» التي كان

---

(١) «الشهاب»، الجزء ٢، المجلد ١٠، شعبان ١٣٥٣هـ، ٩ نفامبر ١٩٣٤م، (ص: ٥٢٩).

(٢) «البصائر»، العدد (٧١)، ربيع الثاني ١٣٥٦هـ، ١٨ جوان ١٩٣٧م/ «آثار ابن باديس» (٥/ ١٥٤ - ١٥٥).

يأخذهم بها، ولوْ كان في تدريس مادةٍ من «علوم الآلة» و«الأدوات»؛ يقول عن دروس البلاغة في كتاب «الجوهر المكنون» للأخضري: «**السنة [الدراسية] الثالثة «١٩٣٣م - ١٩٣٤م»**:... فتح لنا مغلقاته ودرسه علىٰ أسلوبه الخاص فإذا قال الأخضري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كحبّـــذا طريقـــة الـــصوفية تهـــدي إلىٰ المراتـــب العليـــة

حوَّلهُ الشيخ إلى قوله:

كحبّـــذا طريقـــة الـــصحابة في العلـــم والعمـــل والإنابـــة[1]

الأوضاع الطرقية في طريق الفناء والزوال:

- انتشر الإصلاحُ في أرجاء الوطن الجزائري، وآتت الجهود الدعوية بالكتابة في الصحف والمجلات، والقيام بدروس الوعظ والإرشاد في المساجد والنوادي والجولات، آتت ثمارها، وحققت نجاحًا كبيرًا.

يقول الإمام ابن باديس «سنة ١٩٣٦م»: «بقدر ما كان تمسك الأمة بأسباب العلم كان رفضها للجمود والخمود والخرافات **والأوضاع الطرقية المُتَحَدِّرَةِ للفناء والزوال**، حتىٰ أصبح القطر الجزائري كله يكاد لا يخلو بيت من بيوته ممن يدعو إلىٰ الإصلاح، وينكر الجمود والخرافة ومظاهر الشرك القولي والعملي، وأصبحت البدع والضلالات تجد في عامة الناس من يقاومها وينتصر عليها. ومن أجمل مظاهر انتشار الإصلاح وانتصاره - أن خصومه بعد ما كانوا يقاومون ما يدعو إليه من نشر التعليم بالعرقلة والتزهيد، أصبحوا لا يستطيعون أن يظهروا للأمة إلا بمظهر المعلمين. فهم لأجل حفظ مراكزهم اليوم مضطرون لتأييد العلم

(١) «شهداء علماء معهد ابن باديس...» للشيخ أحمد حماني (ص: ١٥).

- ولو ظاهرًا - **العلم الذي يقضي عليهم في المستقبل بإذن الله**»[(١)].

ضربة موجعة لأرباب الطرق؛ شيخُ طريقة مشهور! ينقلب عليها ويصير مصلحًا!!:

- **يقول الإمامُ ابن باديس**: «... فلما ارتفعت دعوة الإصلاح بالجزائر كان في طليعة رجالها نبهاء من أبناء «سوف» المثقفين، وعلمائها المستنيرين، فدعوا إخوانهم بـ«سوف» إلىٰ كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وما كان عليه السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، والخلف الناصح من أئمة المسلمين...»[(٢)].

وعلىٰ إثر زيارة وفد الجمعية لقرىٰ «سوف» «شوال ١٣٥٦هـ = ديسمبر ١٩٣٧م»، حدثت حركة غير عادية بها، وظهر الإصلاح فيها أقوىٰ ما يكون - كما قال ابن باديس -، وذلك بعد الانقلاب الخطير الذي وقع، فقد تحوّل الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي من شيخ الطريقة القادرية إلىٰ عالم مصلح؛ فجاهر في أتباعه وقومه، أثناء اجتماع الوفد في «قمار»: «**إن الطرق بدعة لا أصل لها في الدين فَحَسْبُكُمُ التمسك بالكتاب والسنة**»[(٣)]، وقد تكلم قبله وفدُ العلماء، ونقل كلَّ ذلك الشيخ حمزة بوكوشة - العضو الإداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين - في: [أحاديث جمعية العلماء وحوادثها: وفد «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» بوادي سوف ونواحيها (٤)]؛ قال: «**عقدنا اجتماعنا بـ«قمار»... ألقىٰ الشيخ ابن باديس درسًا في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾** [الأحزاب: ٢١]... ، **ثم**

---

(١) «الشهاب»، ج١، م ١٢، محرم ١٣٥٥هـ، أفريل ١٩٣٦ م/ «الآثار» (٥/ ٥٨٧).

(٢) «الآثار» (٥/ ١٥٩ - ١٦٠).

(٣) «البصائر»، العدد (٩٦)، (ص: ٣)، ١٩ ذي القعدة ١٣٥٦هـ، موافق ٢١ جانفي ١٩٣٨م.

تكلم الشيخ خير الدين كلمة في الاقتداء والائْتِسَاء وحثّ الناس علىٰ مدارسة سيرة الرسول ﷺ وسيرة السلف الصالح فإنهم خير قدوة لمن اقتدىٰ، ثم ألقىٰ الشيخ العربي التبسي درسًا في قوله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ»[1]، وتبعه الشيخ مبارك الميلي بدرس في قوله ﷺ: «قل آمنت بالله ثم استقم»[2]، وحمل فيه علىٰ الطرق وشبهاتها حتىٰ أقنع الحاضرين بأن لا طرقية في الإسلام.

ثم قال الشيخ ابن باديس: لا تأسفوا أن فاتتكم الطرق فإن لكم طريقة من أجمل الطرق قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، **ثم أخذ يفسر الآية تفسيرًا مُحْكَمًا، ثم قام الشيخ عبد العزيز وقال: إن الطرق بدعة لا أصل لها في الدين فحسبكم التمسك بالكتاب والسنة...» اهـ.**

ثم انتقل هذا الوفدُ إلىٰ منطقة «الزيبان»؛ وعاصمتها بلدة «بسكرة»، وفي إحدىٰ بلداتها، أعلن شيخ الطريقة القادرية، مرةً أخرىٰ في جموع الناس؛ أن: «**لا طرقية في الإسلام**»، يقول الشيخ أحمد بن الدراجي [المعلم بمدرسة بسكرة] في مقالته: «وفد «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» بالزيبان»: «يوم الأحد ٩ شوال توجه وفد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إلىٰ بلدة «طولقة» بعد عودته من رحلته إلىٰ وطن سوف... كان موعد اجتماع الأمة البسكرية برجال الجمعية «بالبارك» محل الرياضة، **وقد حضر هذا الاجتماع ما يزيد علىٰ ثلاثة آلاف نسمة،** وافتتح الجلسة حضرة الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس بخطاب حارٍّ شديد اللهجة نَوَّهَ فيه بمجد العروبة والإسلام وأثر تأثيرًا بليغًا في نفوس

---

(١) رواه البخاري (رقم: ٢٦٩٧)، ومسلمٌ (رقم: ١٧١٨).

(٢) رواه مسلمٌ (رقم: ٣٨).

الحاضرين، **ثم تكلم بعده الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي بكلمات بليغة مؤثرة حثّ فيها الناس ودعاهم إلىٰ التمسك بالكتاب والسنة والعمل بهما، ومما حواه كلامه العذب: «أن لا طرقية في الإسلام»**...»[١]، ثم بعد مغادرة الوفد وقع احتفال إصلاحي كبير، في الواد «سوف» ضمَّ شُعَب «سوف» التسع، وكثيرًا من الأعيان والوجهاء؛ أكثر من عشرة آلاف نسمة، بمناسبة افتتاح الدروس العلمية بالزاوية القادرية، وقرروا في اجتماعهم هذا تكوين جامعة لشُعب «سوف» مركزها «الواد»، وكونوا إدارتها، وكان نائب رئيس هذه الجامعة الشيخ «عبد القادر الياجوري»[٢]، يقول ابن باديس: «شرع الشيخ عبد العزيز بعمارة زواياه بالعلم، وعين رجلين للتعليم من أبناء سوف المتخرجين من جامع الزيتونة المعمور هما الشيخ علي بن سعد والشيخ عبد القادر الياجوري»[٣].

شيخُ الطريقة القادرية يُسمِعُ رؤساءَ الطرق كلمةَ الحقّ:

عقد رؤساء الطرق والزوايا مؤتمرهم في عاصمة الجزائر يوم ١٥ أفريل ١٩٣٨م، والأيام التي تليه: ١٦و١٧و١٨، «وقدم إلىٰ الجزائر يوم الاثنين (١٩) الشاب الناهض الشيخ محمد الصالح بن الشيخ الهاشمي[٤] ليشترك في هذا المؤتمر

---

(١) «البصائر»، العدد (٩٧)، (ص: ٣)، ٢٦ ذي القعدة ١٣٥٦هـ، موافق ٢٨ جانفي ١٩٣٨م.

(٢) «البصائر»، العدد (١٠٢) (ص٣).

(٣) «الآثار» (٥/ ٣٩٨).

(٤) **قال ابن باديس في مقالته:** «الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح»: بعد أن ذكر الشيخ الهاشمي: شيخ الطريقة القادرية، واشتراطه في أبنائه أن لا حظَّ لأحدهم في الحبس إلَّا إذا حصل علىٰ شهادة العالمية (التطويع) من جامع الزيتونة: (... انتهىٰ أمر الحبس إلىٰ الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي بمقتضىٰ شرط المحبس بعد وفاة أخيه الأكبر، وتولَّىٰ مشيخة الطريقة القادريَّة، ودخل =

نيابةً عن أخيه الشيخ عبد العزيز رئيس الطريقة القادرية بشمال إفريقيا الذي استدعي للحضور، فألقىٰ خطبةً رائعةً، بيَّن بها أن لا طريقة إلَّا طريقة السنَّة، وذكر فضل علماء الإصلاح علىٰ الجزائر في بثّ الهداية الإسلاميَّة الحقَّة»[1]، وقد نشرت «البصائر» نصَّ الخطاب الذي ألقاه الشيخ محمد الصالح في مؤتمر الطرقيَّة، ممَّا جاء فيه:

١- جاهرهم بالانتقاد علىٰ كون اجتماعهم واتحادهم «جامعة اتحاد الزوايا»، خاصًّا بأصحاب الطرائق وأرباب الزوايا دون غيرهم من العلماء؛ فقال:

«حزنًّا كثيرًا لقصور هذا الاتحاد - إن تحقق - علىٰ طائفة من المسلمين دون طوائف، وودنا لو كان هذا العنوان عامًّا في مدلوله شاملًا للمسلمين كلهم»،

«إن هذا الاجتماع سوق أقمناه ومعرض نظمناه فكان أول عيوبه ونقائصه ما في اسمه من تخصيص النِّسبة وقصور الإضافة»، «أيها الإخوان: لو كان هذا الاجتماع دنيويًّا عقد باسم الدنيا ولغرض من أغراض الدنيا - لكان للتخصيص فيه معنىٰ، ولكان للطائفية فيه عذر مقبول وغرض معقول؛ لأن الناس فرقت بينهم أسباب الدنيا ومصالحها واختلفت بسببها آراؤهم واختصاصاتهم فيها... ولكن هذا الاجتماع ديني في معناه ومبناه وبأسبابه ودواعيه، وليس في الدين حرفة ينفرد أهلها برأي ولا تجارة ينفرد أصحابها ببضاعة. **وإنما هو كتاب الله منه المبدأ وإليه المصير. وعليه قامت سنة نبيِّنا ﷺ، وعليه استقام هدي سلفنا الصالح**

=

معه في الحبس أخوه الشيخ محمد الصالح لتحصيله علىٰ شهادة العالِمِيَّة، فكان الرجلان بما لهما من العالِمِيَّة بعيدين عن كلِّ تلك المواقف العدائيَّة التي وقفها شيوخ الطرق الأخرىٰ أو أُوقِفُوا فيها ضدَّ جمعيَّة العلماء). انظر: «آثار الإمام ابن باديس» (٥/ ٣٩٧).

(١) «البصائر»، العدد (١١١)، ٢٨ صفر ١٣٥٧هـ، ٢٩ أفريل ١٩٣٨م، (ص: ٦).

رضوان الله عليهم، وبهذه الثلاثة قامت الحجة علينا، وبهذه الثلاثة يجتمع شملنا وتتفق كلمتنا، وإلىٰ هذه الثلاثة يجب أن تكون دعوتنا جهارًا بلا إسرار، وجمعًا بلا تفرق، فما أحقَّ هذا الاجتماع بأن تكون دعوته الجفلىٰ وأن يكون باسم الأمة الإسلامية كلها؛ لتجتمع علىٰ الكلمة الجامعة من كتاب ربها وسنة نبيِّها، وما أحقه أن يزدان بحضور علماء الوطن الجزائري الذين هم زينته ومفخره»[1].

٢- **وانتقد عليهم أن يكون اجتماعهم اجتماعًا**: «تثور فيه الحقود وتنمو بسببه الضغائن من طائفة من المسلمين علىٰ طائفة أخرىٰ»[2]، **مُشيرًا إلىٰ ما كان في هذا الاجتماع من التعرض للعلماء المصلحين والتهجّم عليهم.**

٣- دعاهم إلىٰ أن يكون اجتماعهم اجتماعًا حقيقيًّا، تبذلُ فيه النصيحة، وتُسمعُ الحقيقة، فقال:

«لا قيمة لاجتماعنا هذا إلا إذا كان معرضًا للحقائق تجلىٰ فيه بكل صراحة، وملجأً لكلمة الحق تلقىٰ فيه بكل حريَّة، وإنه لا مكافأة لما صرفه الإخوان الحاضرون من وقت ومال في سبيل هذا الاجتماع، إلا ما يسمعونه من حقائق ويتبادلونه من نصائح دينيَّة وإرشادات ويقومون به جميعًا من واجب التواصي بالحق والتواصي بالمرحمة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، فإن لم يكن هذا فلنعلم أننا غششنا أنفسنا وغششنا المسلمين وأسخطنا الله ورسوله وصالحي المؤمنين»[3].

---

(١) «البصائر»، العدد (١١٢)، ٦ ربيع الأول ١٣٥٧هـ، ٦ ماي ١٩٣٨م، (ص: ٦ - ٧).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

٤- جاهرهم بأن من أعظم أسباب ما أصاب هذه الأمة من البلاء: «تفرُّق النِّسَب برؤسائها الدينيِّين»، هذا البلاء الذي طال عليه «الأَمَدُ حتىٰ استعصىٰ علىٰ العلاج. فالواجب علىٰ كلِّ من في قلبه مثقال ذرة من الرحمة بهذه الأمة أو الشفقة عليها أن يُعين علىٰ إزالة أسباب هذا البلاء»[1].

٥- جاهرهم بأن دعوة العلماء المصلحين حقٌّ، فقال:

«إن أحق الناس بالدعوة إلىٰ هذا هم العلماء وقد كانت هذه الدعوة، وكانت صارخة مستفزَّة، فثقلت علىٰ النفوس وقوبلت من بعضها بالاشمئزاز والتنفير. ومن بعضها بالردّ والصدّ. ولا نخفي الحقَّ إذا قلنا إنَّ هذا الاجتماع أثرٌ من آثار تلك الدعوة. لكن الحق الذي يجب أن يقال في هذا المقام هو أن تلك الدعوة في ذاتها حق؛ لأنها تدعو إلىٰ كتاب الله وهو حق وإلىٰ سنة رسوله وهي حق وإلىٰ هدي السلف وهو حق، وإلىٰ هدم البدع التي لابست الدين وهي موجودة حقًّا وكثيرة حقًّا وكلها شرٌّ حقًّا وباطلة حقًّا. والواجب علىٰ كل مسلم هدمها حقًّا».

٦- دعاهم إلىٰ ترك حظوظ النفس وإيثارها علىٰ قبول الحقّ الذي دعا إليه العلماء، فقال:

«ومن الحق الذي يجب أن يقال في هذا المقام أن ثقل تلك الدعوة علىٰ بعض النفوس ليس من طبيعة تلك الدعوة، وإنَّما هو من طبيعة تلك النفوس، والواجب علينا قبل كل شيء أن نفرِّقَ بين ما هو من حقوق الدين، وبين ما هو حظ من حظوظ النفس، وأن نربي أنفسنا علىٰ إيثار حقوق الدين علىٰ حظوظ النفس. وأن نربيها علىٰ الاتساع والإذعان والرجوع للحق، وأن نربي آذاننا علىٰ

---

(١) «البصائر» ، العدد (١١٣)، ١٣ ربيع الأول ١٣٥٧هـ، ١٣ ماي ١٩٣٨م، (ص: ٢ - ٣).

سماع كلمة الحق، وألسنتنا علىٰ النطق بها»[(١)].

٧- **وأخيرًا صارحهم**: بأن لا طرقية في الإسلام؛ فقال:

«**أيها الإخوان: أنا طُرُقِيٌّ وِرَاثَةً، وابنُ زاوية عريقٌ في نسبة الزاوية والطرقية إلىٰ بضعة أجداد في التاريخ، وعندي من العلم ما أُفَرِّقُ به بين الحق والباطل علىٰ الأقل، ومن المعرفة العامة ما أُمَيِّزُ به بين الخير والشرِّ وبين المقبول والمردود، وإني أدين الله الذي أُؤمِنُ بلقائه بأن لا طرقيَّة في الإسلام ولا زاوية في الإسلام ولا طائفيَّة في الإسلام، وبأنه إن كان في هذه الزوايا وهذه الطرق خيرٌ فإنَّ شرَّها يذهب بخيرها**، وبأنَّ من آثارها النفسيَّة التي لا ينكرها إلَّا أعمىٰ البصيرة أنَّها فرَّقت كلمة المسلمين، لا أتكلم عن غائب ولا عن مجهول وإنما أتكلَّم عن مشاهدة وعيان وأعبِّرُ عن وجدان لا تزال آثاره في نفسي التي بين جنبيَّ لولا أن عصمني الله بما وفقني إليه من العلم».

٨- وخَتَمَ شيخُ ورئيسُ الطريقة القادرية بشمال إفريقيا، خطابَهُ بثناءٍ علىٰ

---

(١) نشر ابنُ باديس (للحقيقة والتاريخ) - كما قال - القانون الأساسي لجمعيَّة الزوايا (الطرقيَّة)، وذلك: (ليطَّلع عليه القرّاء ويعرفوا منه غاية هؤلاء الناس وما إليهِ يعملون)، يقول كبراء الزوايا عن غايتهم وغاية (جامعتهم): (غاية هذه الجمعية هي أوَّلًا المحافظة علىٰ نفوذ الزوايا والطرق وعلىٰ شهرتها وسمعتها ومكانتها)، وعلَّقَ ابنُ باديس بقوله: (النفوذ! والشهرة! والسمعة! والمكانة! فهل أَبْقَوْا من مظاهر السلطان والسيادة والكبرياء والعظمة والاستيلاء شيئًا؟ هذه هي غايتهم: أن يَبْقَوْا سادةً علىٰ الناس، وأن يُبْقُوا الناسَ مُسْتَعْبَدِينَ لهم. أين هي التربية؟ أين هو التعليم؟ أين هو نشر الإسلام؟ أين هي مقاومة المفاسد والشرور؟ أين هو الوعظ والإرشاد؟ هذه كلها أمورٌ لا ذكر لها عندهم؛ لأنهم يخافون منها علىٰ سلطانهم...). انظر: «آثار الإمام ابن باديس» (الزوايا وغاياتها كفىٰ بهم شهداء علىٰ أنفسهم) (٥/ ١٦١ - ١٦٢).

دعوة العلماء وتبيينٍ لمراميهم النَّبيلة؛ فقال:

«إنني أدين الله أيضًا أن الحركة القائمة إنَّما هي ضدَّ البدع المحدثة في الدين، وإنَّها إن أَتَتْ فإنما تأتي علىٰ الباطل أمَّا الحقُّ فهو ثابتٌ بإذن الله محفوظٌ بحفظ الله. وإني فهمت ولا زلتُ أفهم من أقوال القائمين بها وأعمالهم ومراميهم أنَّها **ليست موجَّهة لهدم الزوايا وإنَّما هي مُوَجَّهة لإصلاحها**[1]. عبد العزيز بن

(١) وقد شرع الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي (بعمارة زواياه بالعلم، وعيَّن رجلين للتعليم من أبناء سوف المتخرجين من جامع الزيتونة...). انظر: «آثار الإمام ابن باديس» (٥/ ٣٩٨).

فالزوايا إن كانت تعلِّمُ العلم «الصحيح»، وتُرَبِّي علىٰ الكتاب والسُّنَّة وهدْي سلف الأمَّة، فنِعِمَّا هيَ، أمَّا إن كانت زوايا (طرقيَّة)؛ تُعطي العهود، وتُلقِّنُ الأوراد البدعيَّة، ويكونُ المُريدُ فيها خاضعًا مطيعًا لشيخِها (الجاهل)، فهذا الذي هَدَمَهُ المصلحون، وقال فيه ابنُ باديس: (الأوضاعُ الطرقية بدعةٌ لم يعرفها السلف، ومبناها كلّها علىٰ الغلوّ في الشيخ، والتحيُّز لأتباع الشيخ، وخدمة دار الشيخ، وأولاد الشيخ، إلىٰ ما هناك من استغلال... ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشعور، وغير ذلك من الشرور). انظر: «آثار الإمام ابن باديس» (٥/ ١٥٥).

تنبيهٌ: بعضُ (الإصلاحيِّين) العصريِّين - ممَّن أشرتُ إليهم آنفًا - يُؤْثِرُ التَّعبير - عن قصدٍ أو غيرِ قصدٍ -: بأنَّ المصلحين لا زالوا يثنُون علىٰ (زوايا العلم والقرآن)، وإنَّما كانوا يُحاربون (زوايا الشعوذة والخرافة والتدجيل)، و(الشطح والبندير). وقد يبدُو كلامُهم هذا لأوَّل وهلةٍ صحيحًا، لكن إذا استحضرنا دفاعهم عن (الطرق السُّنِّيَّة)! - في زعمهم -، أدركنا أنَّهم يُدخلون في جملة الثناء: (الزوايا الطرقيَّة)، إذا خَلَتْ (!) - عندهم - من مظاهر التدجيل والابتزاز... إلخ، وقد رَدَدْنَا عليهم (مزاعمهم) وفنَّدنا (ادِّعاءاتهم) في هذا البحث وما تضمَّنهُ من فصول وفروع، وأزيدُ هنا، فأقولُ: التَّعبيرُ الصوابُ والدَّقيق: أنَّ المصلحين كما حاربوا زوايا (الشطح والبندير)، و(الشعوذة والخرافة)، حاربوا: زوايا (الطُّرقيَّة)، وأنكروا أوضاعها (البِدعيَّة)؛ من النسبة للشيخ، وإعطاء العهد، وتلقين الوِرْدِ، والمواظبة علىٰ وظائفها (المختَرَعَة)؛ كتحديد =

الهاشمي»[(١)].

- وهل أتاك نبأُ ما أقدمت عليه السلطات الفرنسية في «وادي سوف»[١٨ أفريل ١٩٣٨م]، من الترويع الفظيع، ومحاصرة البلد، وتطويقه بالجنود والمدافع، وصُبَّ علىٰ أهله العذاب، وذاقوا ما ذاقوا، في أيام سوداء حالكة، سببها مكيدة دبرت لأهل سوف، بعد نهضتهم العلمية الدينية، فتعاقد الكائدون «علىٰ قتل تلك الحياة الدينية العلمية من تلك الديار»، وسيق الناس إلىٰ السجون، والبحث، وخُلِّيَ من خُلِّي، وحُكم علىٰ عدد وفير منهم بالنفي والأعمال الشاقة، في محاولة «لاضطهاد شُعَب جمعية العلماء والتضييق عليهم وإكراههم علىٰ التخلي عن الجمعية»[(٢)].

وألقي القبض علىٰ «أربعة من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين دون جُرْم معلوم، ودون أن يقدموا إلىٰ المحاكمة، أربعة من العلماء»؛ وهم: «الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي، والشيخ علي بن سعد والشيخ عبد القادر الياجوري والسيد عبد الكامل بن الحاج عبد الله»، وقد طال سجنهم، ولم يتوقف ابن باديس عن التذكير بقضيتهم.

قال أحد كتّاب «البصائر»[(٣)]: «لا سبب في الواقع لكل ما حدث - رغم ما أشيع -

=

الأذكار بعَدَدٍ وتوقيتٍ وترتيبِ الثواب عليها... إلخ، فالذي نمدحُهُ ونحمدُهُ: زوايا العلم والقرآن، التي لا تنتمي إلىٰ طريقة ولا يَحْشُرُ الشيخُ إليها الطلبةَ ويتَّخِذُهُم مُريدينَ لهُ، يَفرضُ عليهم الخضوع والطاعةَ والاستسلام!! - ترغيبًا وترهيبًا -.

(١) «البصائر» ، العدد (١١٣)، ١٣ ربيع الأول ١٣٥٧هـ، ١٣ ماي ١٩٣٨م، (ص: ٢ - ٣).

(٢) «الآثار» (٥/ ٣٩٤).

(٣) «البصائر» ، العدد (١٦٤)، (ص: ٤).

سوىٰ أن طائفة المستغلين راعها ما شاهدته من نشاط حركة الإصلاح وازدهارها **وعلمت أنها سَتَجْتَاحُ باطِلَهَا وتُرَّهَاتِهَا وتقضي علىٰ ما بقي لها عند الأمة من سمعة ونفوذ...**»، كما كان دخول الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي في الجمعية: «**أكبر ضربة أصابت المضِلِّينَ الجامدين في تلك النواحي والربوع**»[1].

الإمام ابن باديس يُصَرِّحُ بغايته التي قارب فيها نهايتها!:

- **ومن أواخر ما كتب الإمام «١٩٣٩م»**: ما ردَّ به علىٰ وكالة الأنباء العالمية «هافاس»؛ التي جعلت تمجِّدُ التيجانية والطرقية، وتعرِّضُ بالمصلحين، وبابن باديس خاصَّةً - الذي ردَّ علىٰ وزير المعارف المغربي: «محمد بن الحسن الحجْوي»، وصرَّح بما لم يصرِّح به! - ، قال: «**إِيْ نعم إنَّ الحملة علىٰ الطرقية وبيان ضلالاتها وفضح التجانية وبيان إلحادها، كلُّ ذلك محمولٌ علىٰ كاهلي ومربوطٌ به رأسي وإن كنت فيه كواحدٍ من إخواني، وما زِدْنَا علىٰ أن برَّأْنَا الإسلام الشريف من وصمات يرتكبها المنتسبون إليه، ويتماضع بها المتحاملون عليه، وحَرَّرْنَا عقول المسلمين من أوهام خدَّرتهم عن إدراك الحقائق والعرفان، وفكَكْنا أعناقهم من أغلال طال عليها الزمان**»[2].

- **وختامًا**: هذه كلمةٌ من الإمام الإبراهيمي خاطب بها الطرقيين، لما دَعَوه للمناظرة؛ قال: «**وإنما الخلاف بيننا وبينهم في طرقهم وزواياهم وما يرتكبونه باسمها من المنكرات التي فرَّقت كلمة المسلمين وجعلت الدين الواحد أديانًا، فقلنا**

---

(١) «البصائر» ، العدد (١١٢)، (ص: ٣).

(٢) «البصائر» ، العدد (١٥٥)، ١١ صفر ١٣٥٨هـ، موافق ٣ مارس ١٩٣٩م، مقالة: (علىٰ أمواج الأثير.. أيضًا! التجانية في أحضان الراديو).

لهم ولا نزال نقول: «لا طرقية في الإسلام»، وأقمنا علىٰ ذلك الأدلة من الدين وتاريخه الأول والعقل ومقتضياته...»[١].

- **وقال «في سنة: ١٩٣٩م، أو ١٩٤٠م»**: «أما الطرقية فقد فرغنا منها هدمًا وتخريبًا، واقتحمنا عليها معاقلها الحصينة، ودَكَكْنَا صَيَاصِيهَا المنيعة، واسْتَبَحْنَا حماها بكلمة الله، وأقمنا علىٰ أنقاضها بناء الحق.

بدأنا ذلك كله بإزالة هيبتها الباطلة من الصدور، ومحو سُلطتها الكاذبة من النفوس، ثم كشفنا عن نسبتها المزوَّرة إلىٰ الدِّين الحنيف[٢].

فما تمَّ لنا ذلك حتىٰ انهارت من أساسها، وتلك عاقبة كل بناءٍ بُنِيَ علىٰ الوهم والتزوير. وقد أحيانا الله حتىٰ شهدنا جنازتها بلا ردة، وهلنا عليها التراب بأيدينا غير آسفين.

فمن كان يؤرخ للطرقية بهذا الوطن ولاشتدادها فيه وامتدادها منه فليحبس قلمه، فهذه آخر صحيفة من كتابها، وليختمه بتسجيل سنة الوفاة، بإقحام سطر: ماتت: - لا رحمها الله - بين سنة كذا وكذا...»[٣].



(١) «الآثار» (١/ ٣٠٣).

(٢) في هذا دليلٌ صريحٌ، علىٰ أن ابن باديس والإبراهيمي وإخوانهما من الرجال المصلحين، وضعوا مخطَّطًا للقضاء علىٰ هذه الطرقية، علىٰ ما وضّحناه في فصول هذا البحث.

(٣) «آثار الإبراهيمي» (١/ ٤٠٧).

الخاتمة:

بعد هذا «العرض» لـ «مواقف» المصلحين الجزائريِّين، وجهودهم في دحْرِ البدعة ونُصرةِ السُّنَّة، والجهر بالحقِّ وتزييف الباطل، لا يسعُ «منصفًا» يُجِلُّ هؤلاء الأعلام ويقتدي بأولئك الرِّجال، إلَّا أن ينهجَ نهجهم الحقَّ ويأخذَ بطريقتهم المستقيمة، ويرتشِدَ بنصائحهم الحكيمة.

لقد بات لزامًا علىٰ كلِّ صادقٍ في الاتباع، ومحسنٍ في الاقتداء، ينتسبُ إلىٰ هذا الإصلاح «السلفيّ»!، وإلىٰ رجالِهِ، أن يخلُفَ أولئك العلماء المصلحين السلفيين، ويحملَ أمانة النصح والتبليغ من بعدهم كما حملوها، وينهضَ بأعباء الدعوة إلىٰ التوحيد الخالص والسُّنَّة المطهَّرة كما نهضوا بها[١]، وليس يُجدي ولا يُغني عن إصلاح الأمة شيئًا أن نُردِّد ونُعلن بـ«سلفيتهم»؛ التي انتهجوا فيها وطَبَّقُوا حديثَ رسول الله ﷺ: «**يحمل هذا العلم من كُلِّ خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[٢]؛ ونحنُ لا نَخْلُفهم في هذا النهج، ونتخلَّفُ عن القيام لله، في مقامات «الجهاد» التي قاموا فيها؛ ذبًّا عن الدِّين ونُصحًا للمسلمين... ونحنُ لا نقف مواقفَ أسلافنا هؤلاء في الصَّدع بالحق

(١) لا يزال كثيرٌ من العلماء وطلبة العلم والإعلاميين يحتفظون بصورة مشرقة مِلْؤُهَا الإكبار لجمعية العلماء، ولا يزالون ينتظرون منها اليوم أن تنهض بما نهضت به الأمسِ! وأن يقوم أبناء وأحفادُ ابنِ باديس والإبراهيمي بأعباء الدعوة الإصلاحية السَّلَفِيَّة!

(٢) حديث مشهورٌ، وقع اختلافٌ في ثبوته، وصححه الإمام أحمد، والحافظ العلائي. انظر: تعليق الشيخ الألباني علىٰ أحاديث «مشكاة المصابيح» (رقم: ٢٤٨).

والجهر بالقول؛ بيانًا للدين الصحيح، ونصرةً للاعتقاد السليم.

إنَّ من الواجبِ علينا أن نُبَيِّنَ مواضع المرض والداء، ونُشير بصراحةٍ إلىٰ منابع الشرّ والبلاء، ونُرشد إلىٰ سبيل الخلاص والمخرج من الفتنة، التي اتَّخذها الناسُ سُنَّةً !، فإذا غيِّرت قالوا: هذا منكرٌ !

وليس يخفىٰ علىٰ ذي بصرٍ وبصيرةٍ أنَّهُ إذا اتَّحدت «الدَّعوةُ» وتوافقَ «المنهجُ» – والحالُ أنَّ الوقائع والظروف؛ تشابهت أو تطابقت – اتَّحدت النَّتائجُ، أو كادتْ، وتوافقت ردود الأفعال؛ فما قيل بالأمس للأسلاف، يُقالُ اليومَ لخلفائهم، وهكذا.

● ما كان لنا أن ننسىٰ ما كانت العصبةُ الجاهلة، والطوائفُ الضالَّة تعيبُ به أولئك الرجال المصلحين، لقد عابوهم بما هم منه بريئون.

● ما كان لنا أن ننسىٰ ما كان يرميهم به أعداؤهم، ومعارضو دعوتهم، ومنكرو إصلاحهم دهرًا من الزمان!

● ما كان ينبغي لنا – ونحنُ نتصفَّحُ أوراق التاريخ – أن يخفىٰ علينا سبب الخصام، ومردُّ العداوة وعنيف الردّ والجدال؟!:

– **ألم يكونوا:** يُنْعتون بالسَّلَفِيِّين المتشدِّدين؛ نقل الأستاذ حمزة بكوشة في مقالته: «جمعية العلماء المسلمين في سنتها العشرين»[1]: ما: «ذكره الأستاذ ماسنيون في كتاب وجهة الإسلام[2]، حيث قال: «**حزب السلفيّين المتشدّدين الذي ينزع نزعة نصف وهابية** وهو شعبة من الحركة التي تمثلها في القاهرة مجلة

(١) «البصائر» ، السلسلة الثانية، العدد (١٥٤)، ١ شعبان ١٣٧٠هـ، ٧ ماي ١٩٥١م، (ص: ٣).

(٢) وكتاب وجهة الإسلام هذا ألفه جماعة من المستشرقين منهم الأستاذ «ماسنيون» ونقله عن الإنكليزية محمد عبد الهادي أبو ريده.

«المنار»، لذلك يحتفظ بصلة وثيقة بالفئة التي تماثله في مصر، ويترسم خطاها... هذا الحزب... صار له بعض التأثير بسبب برنامجه المنطوي علىٰ الرجوع إلىٰ تعاليم القرآن التي لم يتطرق إليها الفساد، وأكبر لسان معبر عن هذا الحزب صحيفة «الشهاب» التي تنشر بالعربية في قسنطينة ويديرها عبد الحميد بن باديس...»» اهـ.

- **ألم يكونوا**: يتهمون بأنهم زعماء المتوهّبين!، وأن أيادٍ خارجية تحركهم.

- **ألم يكونوا**: يُوصَمُون - وكانوا يومها شبَّانًا ناهضين! - بالغُلُوِّ، وتكفير المسلمين.

- **ألم**: يُوصَمُوا بالطائشين، والمفرقين للجماعة، والمشتتين للوحدة...

هذه وغيرها، قدْ صدرت عن القوم «البدعيين» من «أهل الزوايا» والطرقيين، وصدرت عن قومٍ من غير المسلمين، ومن «المستشرقين» الاستعماريين!

وما كان لمنْ هو من «المصلحين»، أو «الإصلاحيين»، ومَنْ يُرَدِّدُ في «المحافلِ»، و«المجتمعات»: سلفيةَ «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، و«سلفيةَ» شيوخها الأولين، ما كانَ لهُ أن يرميَ بشيءٍ من هذه «الأوصاف» «المنفِّرة» مَنْ يتبنَّىٰ مِن الآخِرين هذا المنهجَ «السَّلفيَّ» في مواجهة البدع الطُّرقيَّة وغير الطُّرقيَّة، ويُبلىٰ البلاء العظيم في سبيلِهِ، ويُؤذىٰ لأجلِهِ.

لئن وجدَ القومُ البدعيُّون «بعضًا» من المؤاخذات علىٰ أولئك المصلحين ووَجدوا «بعضًا» من التصرُّفات التي خرجت عن الاعتدال !، وجانبت الحكمةَ والاتِّزان، من «بعض» المصلحين، أو من ينتسبُ إليهم، أو هو منهم، أو يحملُ دعوتهم، ويحملُ علىٰ الباطل والبدع حملتَهُم... فإنَّهُ مع ذلك ليست هذه بالتي تمنعُ من قبول الحق الذي لاحت دلائله، ونادىٰ به المصلحون بصوتٍ جهيرٍ، ما كانت هذه سبيلًا للطعن فيهم والتحذير منهم ومن دعوتهم، ما دام العلماء «منهم» لا

يفتئون يُبيِّنون حقيقة دعوتهم، ويوضِّحون ما خفي عن الناس من مُرادهم وغايتهم، وينفون عن أنفسهم ودعوتهم ما يشينهم به أعداؤهم، ويوصون أنصار الإصلاح بالرفق واللين والبعد عن المهاترات والتَّحلي بأخلاق العلماء النَّاصحين.

وفي المقابل ما كانت هذه سبيلًا لتصحيح أو تحسينِ «محدثاتِ» أولئك «المدافعين» عن «أوضاعهم» و«رسومهم»، والاحتجاجِ لـ «سُنِّيَّتِها»، والتَّعلُّقِ بـ«اجتماعِ» الأمَّةِ عليها قرونًا !، وبـ «أقدميَّتِها»،

فليس هذا هو «الميزانُ»، وإنَّما: «الحجة لكتاب الله ولسنة رسوله، أو إجماع العلماء بشرطه علىٰ ما يستند عليهما، وبهذا الميزان فأعمال الناس إما حقٌّ فيقبل أو باطل فيردُّ»[1].

لقد كان من حُججِ «بل: شبهات» القوم «البدعيِّين» من رؤساء الزوايا والطُّرقيِّين، ومن مالَ إليهم واقترب منهم وناوءَ «المصلحين»؛ من العلماء «الموظفين»، و«الحكوميِّين»:

١- أنَّهُ كما يوجدُ في مَنْ ناوَشَتْهُم سهامُ «المصلحين» ورماحهُم، مَنْ هم من المفسدين والدجاجلة المرتزقين، يوجدُ في المصلحين والمنادين بالإصلاح أهلُ إفسادٍ، وفي كلا الفريقين أناسٌ صالحون مصلحون «؟!».

لن أناقش هذا عندما يصدرُ من رؤساء الطرق وحماة البدعة، لأنَّ القضيَّة كلَّ القضيَّة: - وهم يعترفونَ بوجوب الإصلاح ونبذ البدعة وموافقة السنَّة ! - في أنَّهم لا يَرَوْنَ «طرقهم» و«الأوضاع» و«الرسوم» التي هم عنها محامون وعليها محافظون، لا يرونها تخالفُ الكتاب والسُّنَّة، بل يرونها أُسِّست علىٰ تقوىٰ من الله

---

(١) «آثار الإبراهيمي» (١/ ١٧٤).

وعلىٰ الكتاب والسُّنَّة !؛ ففي الحين الذي يكتبُ ابنُ باديس: «**العهد الطرقيُّ بدعةٌ لا أصل لهُ**»، هم يكتبون: «**مبايعةُ شيوخ الصوفيَّة أو أخذ العهد الطرقي له أصلٌ في كتاب الله وسنَّة رسوله ثابتُ الأساس لا يتزعزع رغم أنوف الجاحدين**»[(١)].

وعندما يدعو المصلحون السلفيُّون إلىٰ التوحيد الخالص، إلىٰ عبادة الله وحده، ودعائه وحده، والرجاء فيه وحده... يُنافحُ هؤلاء عن الشرك وينبرون لحمايتِهِ والردِّ علىٰ «الجماعة الوهَّابيَّة» - زعموا -[(٢)]، ويدعون إلىٰ قبور الأولياء الصالحين المعتقَد فيهم، وإلىٰ الاستغاثة والاستشفاع بهم، ويقولون: إنَّا لا نعتقدُ فيهم الضرَّ والنَّفعَ وإنَّما هم وسيلتنا عند الله، وشفعاؤُنا لديه[(٣)].

وعندما يدعون المصلحينَ للمناظرة يقولون: «لا نقبل الجواب في العبادات إلَّا بما قرَّره مالك وأتباعه، ولا نقبل الجواب في العقائد إلَّا بما قرَّره الأشعريُّ وأتباعه»**!**[(٤)].

أمَّا المصلحون وهم أَعْرَفُ بالقوم وقد عرفوهم وخالطوهم أوقاتًا، فلم يُجاروهم في ذلك لعلمهم أنهم لا يملكون إلَّا «**العناد والإصرار علىٰ الباطل**»[(٥)]، «**يُحكِّمون الهوىٰ ولا يحكمون الدَّليل**»، يقول الإبراهيميّ: «وبلوْناهم فوجدنا

(١) جريدة «الرشاد» (لسان حال جامعة اتحاد الزوايا والطرق الصوفيَّة)، العدد (٧)، (ص: ٣).

(٢) «آثار الإبراهيمي» (١/ ٣٠٠).

(٣) صرَّح بذلك وأذاعهُ في الصحيفة (اليوميَّة): «النَّجاح»، أحدُ الطرقيِّين ورئيس زاوية شهيرة في (العمالة القسنطينيَّة)، وهو من أبرز كُتَّاب الصحيفة المذكورة.

(٤) من كتاب «إماطة اللثام عما نشأ في الحاضرة التلمسانيَّة من الشكوك والأوهام والشقاق والخصام»، نقله ابن العقون في مذكراته: «الكفاح القومي والسياسي... » (١/ ٢٢٨).

(٥) «آثار الإبراهيمي» (١/ ٣٠١).

أَمْثَالَهُمْ يسمي البدع المنكرة عوائد دينيَّة.. أمع هؤلاء تكون المناظرة؟ لا،...»[(١)].

يقول الشيخ مبارك الميلي في «رسالة الشرك ومظاهره»«ص: ٢٨٠»، تحت فصل: «**اعتماد الطرقيين علىٰ الخرافات**»: «النقطة الخامسة الاعتماد في دينهم علىٰ الخرافات والمنامات وما يربي هيبتهم في قلوب مريديهم من حكايات، ولا يتصلون بالعلماء إلا بمن أعانهم علىٰ استعباد الدهماء والرد علىٰ المرشدين النصحاء بتأويلِ ما هو حجة عليهم وتصحيحِ الحديث الموضوع إذا كان فيه حجة لهم. قال أبو بكر بن العربي في «العواصم»: «إن غلاة الصوفية ودعاة الباطنية يتشبهون بالمبتدعة في تعلقهم بمشتبهات الآيات والآثار علىٰ محكماتها، فيخترعون أحاديث أو تُخترع لهم علىٰ قالب أغراضهم ينسبونها إلىٰ النبي ﷺ ويتعلقون بها علينا»» اهـ.

وقال في «ص: ١٨٤» تحت فصل: «**إعراض المبتدعين عن محكم الكتاب وصحيح السنة**»، مبيِّنًا أنهم لا يرجعون في تمحيص «العقيدة» وغيرِها: «إلىٰ الكتاب والسنة، فإن اضطروا إليهما تمسكوا بمتشابه الكتاب ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وبضعيف الحديث المتداعي والموضوع الذي لا تحلُّ روايته إلَّا للتحذير منه»: «**وتلك عادة المبتدعين من قديم لا يُعْنَوْنَ بَمُحْكَمِ الذكر وصحيح الأثر، ولكن بالحكايات المختلَقات والأضاليل الملفَّقَات**» اهـ.

أقولُ: لكنْ صدور تلكم المقالة ممَّن هو معدودٌ في العلماء والمفتين، يُعرِّضُ فيها بالعلماء المصلحين «بدعوىٰ: سلوك الاعتدال»، إلىٰ حدِّ أن يقول: لستُ منهم. «أي: لستُ بمصلح»، بالحُجَّةِ المذكورة آنفًا، وهي أنَّه قد ظهر ممَّن انتسبَ إلىٰ هؤلاء شيءٌ من الفساد، وأوغلَ وتنطَّعَ في طريقة الإصلاح، وهي حقٌّ، أقولُ:

---

(١) «الآثار» (١/ ٣٠٢).

اعتراضٌ بمثل هذا مجانبٌ للصوَّاب؛ لأنَّ ما أنكره المصلحون السَّلفيُّون في «ثورتهم» علىٰ تلكم الأوضاع الدينيَّة الفاسدة - تأسَّس علىٰ الكتاب والسنَّة وفهم الصحابة والتَّابعين وأتباع التَّابعين، وهو واجبٌ دينيٌّ، اجتمعوا علىٰ إقامتِهِ، وليس كما يقولُ مخالفهم والمتبرِّئُ منهم:

٢- إنَّهم خاضوا في «المسائل الخلافية»، وأيقظُوا بذلك: «الفتن» وتسبَّبُوا في إضاعة الأوقات و«الزمن»، وتفريق كلمة المسلمين.

فهل كان تصحيحُ العقائد وتطهيرُ القلوب من الشرك والخرافة مسألةً خلافيَّةً، يُعَدُّ مُثيرُها والموجِّهُ جهودهُ إليها مثيرًا للقلاقل والفتن والاضطرابات؟، كلَّا.

هل إنكارُ الأوضاع الطرقيَّة والقشور والرسوم الصوفيَّة من مسائل الخلاف التي تُتركُ؛ لأنَّها تُوقظُ «الفتنة»، لعنَ اللهُ من أيقظَها؟...

وما أحسن ما قالَ الإبراهيميُّ: «إن لنا في الدعوة الإصلاحيَّة سلفًا صالحًا يبتدئُ بأصحاب رسول الله ﷺ ولا ينتهي إلَّا بقيام السَّاعة... **وإنَّ العاقبة في كلِّ قرن وكلِّ جيلٍ للحق**، وإنَّ في العلماء الذين بجَّلوهم تقليدًا وجهلًا، وينتسبون إليهم كذبًا ودجلًا مَنْ هو حجة عليهم بعمله لو كانوا يفقهون، ومن هو أنكىٰ عليهم منَّا في التشنيع والإنكار لو كانوا يقرءون، ولكنهم لا يفقهون ولا يقرءون. وإن علماء هذا العهد في الأقطار الإسلاميَّة الأخرىٰ فريقان: فريق يحملُ علىٰ المبتدعة حملتنا وينتصر للحق انتصارنا، ويدعو المسلمين إلىٰ الرجوع إلىٰ كتاب الله وسنَّة نبيِّه وهدي السلف الصالح من أمته دعوتنا، وفريق ضعفت إرادته فاشترىٰ المبتدعةُ ضميره ودينه ولسانه وقلمه، فأصبح ينصر أباطيلهم باسم العلم، ويزيِّن أضاليلهم باسم الدين، ويدافع عنهم كما يدافع «المحامي» المأجور عن القاتل وهو

يعلم يقينًا أنه قاتل»[١].

قلتُ: ولعلَّه يُضافُ فريقٌ ثالثٌ: قال بالدعوة إلىٰ الاعتدال ! - ولنعم الدَّعوة - ولكنَّهُ لم يُخالفه الصواب، وتقدَّم ذكرٌ لبعض حججه وبيانُ ما فيها.

٣- ومنها: قولُهُ:

«ولو عِيبَ شيءٌ بالـذي جـاء أهلُـهُ   لَعِيبَ علىٰ الإسـلام إن زاغ مـسلم»

جوابُهُ: إنَّ دينَ الإسلام ودعوتَهُ حقٌّ لا باطل فيه، وصوابٌ لا خطأَ يحويه، فانحرافُ منتسبٍ للإسلام، لا سبيل إلىٰ الطعن في الإسلام به؛ لأنَّ معالمَ الحق في الإسلام واضحة ومباديه الحقَّة لائحة، وهي الاستقامةُ والاعتدالُ، فمنشأُ اعوجاج المنتسب ليس منها، وردُّ انحرافه ليس إليها، وإنَّما هو بتركها والخروجِ عنها، وإذ الأمرُ كذلك عند الموافق والمخالف، فالقولُ في طريقة الإصلاح «السَّلفيّ» هو القولُ في طريقة الإسلام، وما الإصلاحُ السَّلفيُّ أو «السَّلفيَّةُ» «الحقَّةُ» إلَّا هذا الإسلام الذي ترك رسول الله ﷺ عليه أصحابَهُ وأُمَّتَهُ، وهو الذي يذكره الإمام ابن باديس في «دعوته» التي حرَّرها بقلمه وجسَّدها في واقعه ومسيرتِهِ:

«١- الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جميع رسله، وكمله علىٰ يد نبيِّهِ «محمد» الذي لا نبيَّ بعده... ٥- سلوك السلف الصالح - الصحابة والتابعين وأتباع التابعين - تطبيقٌ صحيحٌ لهدي الإسلام. ٦ - فهوم أئمة السلف الصالح أصدق الفهوم لحقائق الإسلام ونصوص الكتاب والسنة. ٧- البدعة كل ما أحدث علىٰ أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي «ﷺ» فعله،

(١) «الآثار» (١/ ٣٠٣).

وكل بدعة ضلالة...» اهـ[١].

فانحرافُ «بعضٍ» ممَّن ينتسبُ إلىٰ «السَّلفيَّة»، ويدعو إلىٰ «الإصلاح» علىٰ هذه الطريقة... انحرافُهُ في الدعوة إلىٰ هذا الحقِّ، كيفما كان هذا الانحرافُ والبُعدُ عن مباديها - لا يُلحَقُ بهذه الدعوة الحقَّة، فتُنسب إلىٰ الإفساد، وتُجعل في مصافِّ غيرها من «الفرق» و«الطوائف» المستحدثة؛ لأنَّها قامت علىٰ الحقِّ وعلىٰ السنَّة، وتلك قامت علىٰ الباطل والخروج عن السنَّة.

فـ «رسوم» المتصوفة و«أوضاعُ» الطرقيين في ذاتِها وحقيقتها ومبدئِ أمرها: بدائعُ منكراتٌ، وفسادٌ في الدِّين، وما يَعترفُ به مَنْ يُنادي بـ«**الاعتدال**» مِنْ وجود مفاسد كثيرة في أوساط «القوم»، ما هو إلَّا نتيجةٌ لذلك الفساد الأوَّل، ولقد لفت الإمام ابنُ باديس أنظارَ أصحابِ هذه «**الدعوة**» إلىٰ هذا المعنىٰ، فيما قدمناه تحت فصل «**أخذ العهد الطرقي بدعةٌ**»، ولا بأس بإعادته هنا:

نشر الإمام تحت عنوان «الدجل»، نَصَّ استفتاء لأحد المدرسين وجوابَه؛ الذي شدَّد في التحذير من الشرور الظاهرة لأهل «الطرق»، وغفل عن بيانِ حكم أعظمِ تلكم الشرور، بل هو مسبِّبُها ومولِّدُها، فقام الإمام بواجب البيان، وجلَّىٰ الحقيقة التي جهلها ذاك المفتي، أو غابت عنه!؟

قال:

«**ش: أَخْذُ العهد الطرقي بدعة لم يفعلها السلف الصالح** رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ. **وهي الذريعة لكل ما ذكره في السؤال وأجاب عنه ولغيره. فهي حرامٌ لِبِدْعِيَّتِهَا والتَّذَرُّعِ بها للشر والفساد والضرر» اهـ.**

---

(١) «آثار الإمام ابن باديس» (٥/ ١٥٤).

فالفسادُ الذي اعترىٰ المنتسبين إلىٰ هذه «الطوائف» البدعية و«الفرق» الطرقيَّة، هو امتدادٌ وتابعٌ لانحرافهم الأوَّل عن السُّنَّة وما كان عليه أصحابُ محمد ﷺ، فأخذوا بذنب ضلالة في أول طريقتهم، واستجازوا لأنفسهم تَرْكَ متابعة السَّلف باستحساناتهم، فكان ما كان من المفاسد التي عظم خطرها وتكاثر شرُّها، ولا مُنْجِيَ من شَرَرِهَا، ولا عاصم من ضَرَرِهَا إلَّا الرجوع إلىٰ فُهُومِ السَّلف الصالحين، وتَرْكِ البدعة، علىٰ ما قرَّره الإمام من أصول الدعوة ونقلناهُ قريبًا.

ومن هذا البيان يتَّضِحُ أنْ لا وجهَ للإلزام المذكور؛ فشتَّان ما بين الدعوة التي تدعو إلىٰ «الإسلام الصحيح»، وإلىٰ «الجماعة»«وهم من كان علىٰ مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابُهُ»، وتطبِّقُ الأحاديث الصحيحة التي تدعو إلىٰ محاربةِ البدع في الدِّين، وبين الدعوة التي تدعو إلىٰ «محدثات» شيوخها، و«مخترعات» مؤسِّسيها، بل تدعو إلىٰ ديانات ! وتشريعات !، تختلفُ باختلاف أذواق الشيوخ ومواجيدهم وإلهاماتهم ومكاشفاتهم، واللهُ تعالىٰ قال: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وما أحسن ما قال الأستاذ محمد السعيد الزاهري، في الردِّ علىٰ مَنْ قال: «إنَّ مؤسس هذا المذهب [أي: دعوة التوحيد والسنَّة، والتي ينبزونها بالمذهب الوهَّابيِّ!] هو شيخ الإسلام ابن تيمية، واشتهر به ابن عبد الوهاب»!، قال: **«والواقع أن مُؤَسِّسَ هذا المذهب ليس هو ابن تيميَّة ولا ابن عبد الوهاب ولا الإمام أحمد ولا غيرهم من الأئمة والعلماء، وإنما مُؤَسِّسُهُ هو خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، علىٰ أنه في الحقيقة ليس مذهبًا، بل هو دعوةٌ إلىٰ الرجوع إلىٰ السنة**

النبويَّة الشريفة وإلىٰ التمسك بالقرآن الكريم، وليس هنا شيءٌ آخر غير هذا» اهـ[(١)].

٤- وممَّا يُنقَمُ علىٰ المصلحين السَّلفيِّين أنَّهم تجرَّدوا «؟!» من معاني الرحمة والعطف علىٰ المسلمين، فهم قُسَاةٌ غلاظٌ جُفاةٌ...

ربَّما كان هذا ويكونُ في «بعضٍ»، وليس هو كما قلنا بسبيلٍ للبراءة من الدعوة الإصلاحيَّة، وإضفاءِ «الشَّرعية» - كما يُقال - علىٰ الطرائق البِدعيَّة، والتَّهوين مِن أمر مَن ينتقِدُها، والتَّهويل عليهِ.

إنَّ تلكم الشِّدَّة علىٰ الباطل والغارة علىٰ المُبطلين كان الباعثُ عليها: الغيرة الدينيَّة، ومقتضىٰ الأخوَّة الإسلاميَّة، علىٰ أنَّها كانت موجَّهَةً إلىٰ الرءوس المُضلّين والمُعاندين المبطلين الذين تبيَّن لَدَدُهُم، وسمَّمُوا العامَّة وألَّبُوها ضدَّ العلماء.

يقول الإبراهيميُّ: «ليعلم من لم يكن علىٰ بصيرة من أمرنا أننا لا ندعو إلا إلىٰ الله ودينه ونبيِّهِ وسنَّة نبيِّهِ وهدي السلف الصالح من أمته. وأنَّنا لا ننكرُ علىٰ أحدٍ لذاته أو اسمه أو شهرته، وإنَّما نُنكرُ علىٰ المبطل باطله أو وقوفه في طريق الحقِّ، ولو أنصف خصومنا لعلموا أنَّ إنكارنا عليهم هو دليلُ أخوَّتنا لهم بدليل صدقنا في هذه الأخوة، **فلو لم يكونوا إخواننا في الدِّين لما أنكرنا عليهم ما أنكرهُ الدِّين.** وإنَّ الدِّين الذي أوجبَ علينا جميعًا التَّحاكم إلىٰ كتاب الله وسُنَّة نبيِّهِ والرضا بحكمهما والتَّسليم لهما والرجوع إلىٰ سبيلهما الجامعة، وقد دعوناهم إلىٰ هذا ولا نزالُ ندعوهم...»[(٢)].

---

(١) (الوهابيُّون سنيُّون حنابلة)، «الصراط»، العدد (٥)، ٢٦ جمادىٰ الثانية ١٣٥٢هـ، ١٦ أكتوبر ١٩٣٣م، (ص: ٥).

(٢) (كلمة من المجلس الإداري لجمعية العلماء المسلمين إلىٰ كتَّاب «البصائر» الكرام)، حرَّره نائب =

ويقول الإمامُ ابنُ باديس في آخر مقالته «بيان لا لبس فيه»: «... قد رأيتُ بعض الواجب عليَّ بهذا البيان في غير عُنفٍ ولا وجل، أخًا مشفقًا، لا عدوًّا مُخاصمًا، غير حامل بين جنبيَّ لإخواني المسلمين «عَلِمَ الله» غير الحبِّ والحنان والنُّصح والإخلاص، **وهذا الذي يحملني علىٰ مصارحتهم بالحقِّ الذي قد يُغضبُ بعضَهم**، ودعايتهم إلىٰ أصلي السّعادة الدنيويَّة والأخرويَّة اللذين جاء بهما الإسلام وهما: التوحيد والاتحاد، وإذا لحقني في هذا السبيل أذىٰ من إخواني فإنَّني موطِّدٌ عزمي «إن شاء الله تعالىٰ» علىٰ أن أقول لهم دائمًا ما قاله يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لإخوته: ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٩٢﴾ [يوسف: ٩٢]».

دعوةٌ إلى التَّفكير والحكم بالإنصاف:

● هل يحلُّ لنا أن نصفَ من قامَ - اليومَ - ؛ يدعو بدعوة هؤلاء المصلحين؛ يردُّ الناسَ إلىٰ توحيد ربِّ العالمين، وتحكيمِ سنَّةِ نبيِّه الأمين، بأنَّهُ يأخذُ بطريقة «الغلوّ»، و«التشدّد»، و«الفظاظة»، و«التفريق»، ويُنَفَّرُ منهُ بتلكم الأوصاف التي أُطلقت علىٰ «الأسلاف» بالأمس؟!

● هل أدركنا حقًّا حقيقة «الدعوة السلفية» التي اضطلع بها الأئمة ابن باديس والإبراهيمي ورفاقهما؟!

● هل أدركنا جيِّدًا منهج دعوتهم، وأصول برنامجهم الديني - علىٰ وجه الخصوص -؟!

- بالوقوفِ علىٰ تفاصيل وحيثيات مواقفهم التي وقفوها، وهم في خضمِّ

=

الرئيس محمد البشير الإبراهيمي وعنه أمضاه الرئيس وأقرَّه مجلس الإدارة في جلسته المنعقدة يوم الخميس السابع من شوال ١٣٥٤هـ/ «آثار الإمام ابن باديس» (٦/ ١٣٣ - ١٣٤).

معاركهم ومنازعاتهم مع مخالفيهم ومناوئيهم، وهو نزاعٌ دينيٌّ، واختلافٌ جذريّ عميقٌ في فهم الدين الصحيح، ولولا ذلك، لما تمسك كلُّ قوم بما هم عليه، يجادلون ويناضلون عنه!!، بالوقوف علىٰ ذلكَ كلِّهِ، تتلاشىٰ وتتبدَّدُ دعوىٰ أنَّها «مسائلُ خلافيَّة»، و«فتنةٌ» أيقظها أدعياءُ «الإصلاح»!

● هل أدركنا أنَّهُ لا وُجودَ لجماعة «**الوهابية**» المتوهَّمة![1]، فما ثمَّ إلَّا الدعوةُ إلىٰ الكتاب والسنَّة علىٰ مقتضىٰ فهوم الصحابة والتابعين.

● هل آن لنا أن نجدِّدَ العملَ، بثباتٍ علىٰ الخطة القديمة للمصلحين السَّلَفِيِّين، ونحنُ نُوقنُ بأنَّ: «**السلفية في حقيقة الأمر: اتباع ما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية وهدي السلف الصالح، وكل ما خالف الكتاب والسنة فهو بدعة حاربتها جمعية العلماء المسلمين... وقد أسَّسَ ابن باديس لهذا الفهم الصحيح للإسلام**»[2]، ونوقنُ بـ: «**ضرورة أن يحرص المسلمون علىٰ تنقية الإسلام من كلِّ البدع والضلالات وهي الرسالة الأساسية التي قامت من أجلها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين**»[3].

● هل آن لنا أن نعرفَ وجوه الانحراف في هذه «الطرق» الصوفيّة، وعند أهلها؟!

- لعلَّ من يقفُ علىٰ هذا «العرض» لهذه «المواقف»، وينظر فيهِ بتجرُّدٍ

---

(١) تكلَّمتُ بإسهابٍ عن مواقف المصلحين الجزائريين من الوهابية المتوهَّمة! - التي لا وجودَ لها!! -، وعن سُبَّة الوهابيين!!، في القسم الثاني من هذه السلسلة: (صفحاتٌ من تاريخ الإصلاح «السَّلفي» في الجزائر) يسَّر الله تعالىٰ إتمامها وإخراجها.

(٢) جريدة «الخبر» اليومي، الاثنين ١٦ أفريل ٢٠٠٧م، ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ.

(٣) جريدة «الأحرار»، ٢٣ أفريل ٢٠٠٨م، (ص: ١٤).

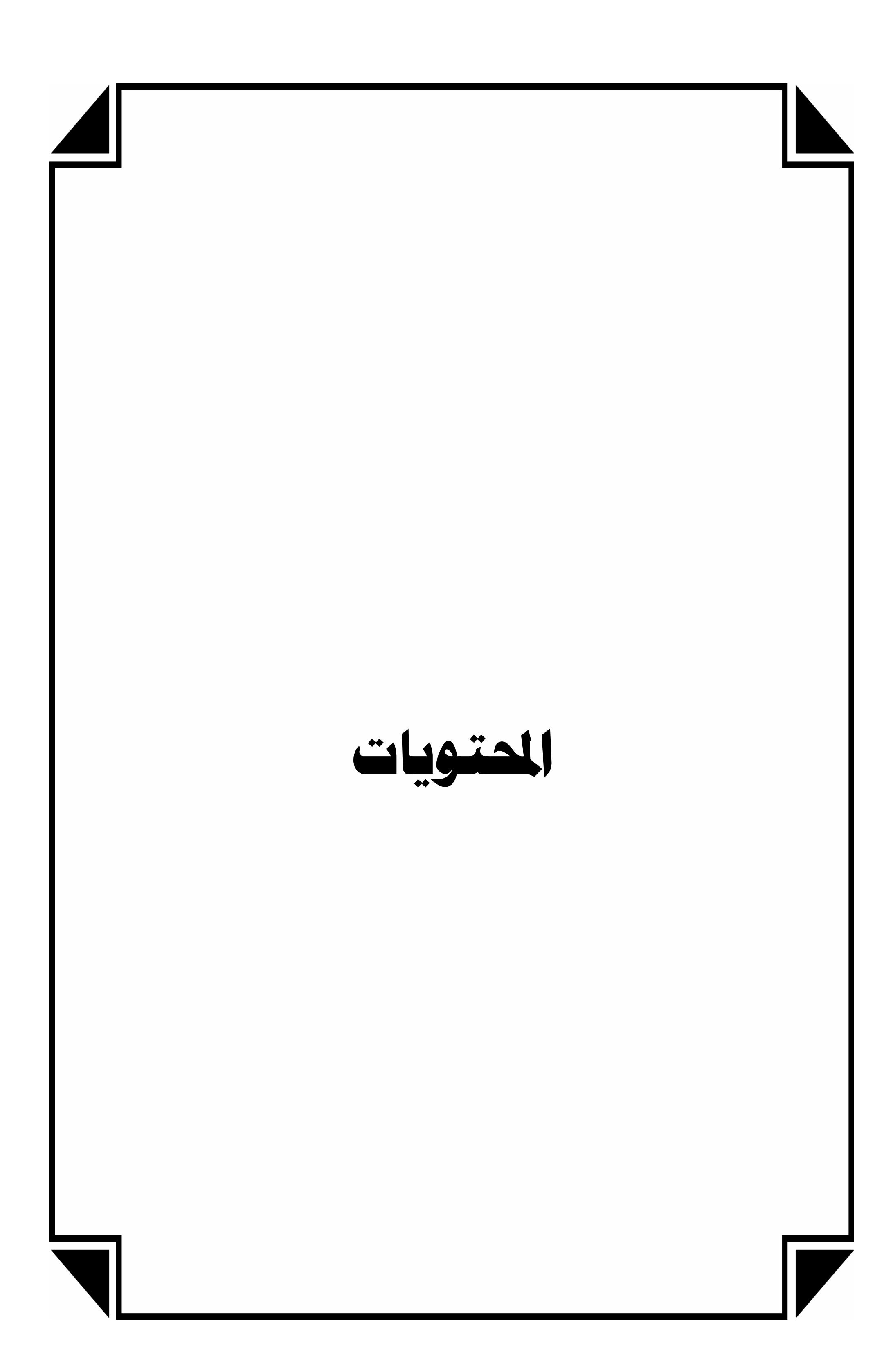
- وهذا ما نرجوهُ -: تحصلُ له كفايةٌ من «العلم الصحيح»، يُدرِكُ بها مقدار بُعْدِ أولئك عن السُّنَّة، وإلىٰ أيِّ حدٍّ أَوْغلُوا في البدعة والتَّزيُّد علىٰ الدِّين والتَّغالي فيه؟!

حتّىٰ إذا جئنَا نُعدِّدُ ما يُنكرُهُ «الإصلاحُ» عليهم، لم نُهمل «أصول» الانحراف، اشتغالًا بما تفرَّع عنها وانبنىٰ عليها، وحتَّىٰ لا نقعَ في «البَغْيِ» علىٰ منتقِدِهم بحقٍّ، والمُغيرِ عليهم بعِلمٍ.

والله تعالى الهادي من يشاءُ إلى صراطٍ مستقيم.

تَمَّ بحمد الله تعالى وعَوْنِهِ.





المحتويات

بيضاء

المحتويات




تمت بحمد الله